قهر المستحيل

رواية

عبد الحق شحادة

ملحمة بطولية حقيقية تروي قصة الهروب
الأسطوري من معتقل نفحة الصحراوي

الكتاب: قهر المستحيل
التصنيف: رواية
الكاتب: عبد الحق شحادة
الطبعة الرابعة: 2021

سلسلة أقلام فلسطينية (15)
صادرة عن
الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين
غزة: Tel: 08- 2825299

جميع الحقوق محفوظة

دار الكلمة للنشر والتوزيع
غزة – فلسطين
جوال 0598877444 - 00972
kalemabook@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

قهر المستحيل

رواية

عبد الحق شحادة

ملحمة بطولية حقيقية تروي قصة الهروب
الأسطوري من معتقل نفحة الصحراوي

الإهـداء..

.. إلى والـــــــــــــديّ ..

.. إلى زوجتي وأطفالـــــــي ..

.. إلى أخوتي وأصدقائـــــي ..

.. إلى جميع المناضليـــــن ..

.. المعتقلين منهم والمحررين ..

هذه الرواية

كتب هذه الرواية في السجن، وسجنت مع كاتبها، وخرجت معه بعد مدة اعتقال تجاوزت العقد من الزمان.. لذا فهي تشكل معلّماً له خصوصيته في حياة الكاتب الشاب، سيما وأنها كتبت بهدف التثقيف السياسي داخل المعتقلات.. فقد طافت مع صاحبها بل قل مع أصحابها معظم السجون الأمنية لتصبح مادة روائية معروفة لكثير من المعتقلين.

والرواية تتحدث عن عملية هروب ثلاثة سجناء أمنيين من سجن نفحة الشهير في العام 1987 والتي أثارت دهشة الجميع وفي مقدمتهم سلطات الاحتلال لما هو معروف عن نفحة من دقة وكثافة في التحصينات، علاوة على انعزاله في قلب الصحراء الأمر الذي يجعل الهروب مستحيلاً.

وقد يلمس القارىء إلتزام الكاتب بواقعية الحدث حتى في تفاصيل قد لا تكون مبررة روائياً، ومرد ذلك كما أسلفنا إلى أن الرواية تؤرخ لفترة من حياة المعتقل وكتبت لقارىء هو صانع الحدث وشاهد الاثبات عليه ولم يراود الكاتب يوماً أنها ستنشر لجمهور القراء.

والرواية تمثل الأدب الفلسطيني داخل السجون، حيث يتجلى الوجه الآخر والحقيقي من حياة الشعب الفلسطيني الذي يمثل البعد الأكثر مرارة في المواجهة بين الشعب وجلاده.

وقد يحاكم البعض الرواية محاكمة فنية وله الحق كل الحق في ذلك. كما

لنا الحق أن نعتز ونحترم محاولات من غيبوا بعيداً عنا ليصنعوا حياة أخرى، إذا ما تعرفنا على يومياتها تسكننا الدهشة، ولا نملك إلا الاعتراف بالقصور عن صنع الأفضل والأجمل، والقصور تجاه آلاف الرجال الذين يعيشون بيننا وقلوبهم تخشع كلما لاحت لهم عيون في الجانب الآخر خلف الأسوار.

ولعلي في النهاية أرجو من الكاتب عبد الحق شحادة، والذي أعرف أنه تجاوز قصور محاولاته الأولى، والتي قد تكون هذه الرواية إحداها، أن يحاكم محاولاته كثيراً قبل دفعها إلى المطبعة، وأن تكون المحاكمة نابعة من دراية واطلاع واسعين على عالم الأدب.

ونحن بانتظار محاولاته في القصة القصيرة والرواية والتي لا شك أنها ستكون الأكمل والأجود.

غـريب عسقلانــى

غزة..1992/1/17

أبطال الرواية الرئيسيون

- **كمال عبد النبي..**

من سكان مخيم جباليا.. أمضى في السجن اثنا عشر عاماً.. وأفرج عنه مع قدوم السلطة عام 1994.. حُكم عليه بالسجن المؤبد. كان من قيادات حركة "فتح" في السجون.. وخلال فترة وجوده في السجن اتسم بالجرأة والشجاعة. يعتبر شاعراً من شعراء الحركة الأسيرة.

- **شوقي أبو نصيرة..**

من سكان بني سهيلا.. حُكم عليه بالسجن المؤبد.. جريء ومقدام.. معهود عنه بالصلابة والعناد.

- **مسعود الراعي..**

من سكان مدينة غزة – حي الزيتون – تم الحُكم عليه بالسجن المؤبد، وهو من قيادات حركة "فتح" ويعتبر رمزاً لأبناء الحركة في السجون.. قبل اعتقاله مارس العمل العسكري بجدية ونشاط. وقام بتنفيذ عدة عمليات عسكرية استهدفت إحداها موكب مسؤول جهاز الشرطة الإسرائيلية في مدينة غزة.

هذا وبالإضافة إلى هذه الشخصيات الرئيسية الثلاثة.. فإن هناك

شخصيات أخرى لعبت أدواراً أساسية وثانوية ساعدت في إنجاح عملية الهروب.

الفصل الأول

الإختراق

(1)

... ما أن حطت أقدامهم خارج أسوار السجن الشائكة وتواروا خلف كتلة صخرية تحجبهم بعيداً عن أعين الحراس وكلابهم القابعين في الأبراج المحيطة بأسوار السجن، حتى بدأت الفرحة على وجوههم، فتنفسوا الصعداء بعد أن تزاحمت دقات قلوبهم في صدورهم وزادوا لهاثاً تحسباً من مفاجأت.

"وأخيراً خرجنا بسلام ونجحت الخطة يا كمال"

كانت هذه أولى الكلمات التي خرجت من فم أحدهم لتقطع الصمت الذي أطبق على المكان في تلك اللحظات لتثير في مُقلاتِ عيونهم دموع الفرحة، فاحتضنوا بعضهم البعض بحرارة متمتمين ببعض الكلمات القليلة...

جلسوا برهة من الوقت لالتقاط الأنفاس بعد مرحلة من العناء الطويل والتوتر العصبي الناتج عن التوجس والخوف من احتمال فشل خطتهم في تحرير أنفسهم وقهر المستحيل ومن ثم ضياع كل ما فكروا به وأعدوا له جيداً بعد أن اتخذوا كل وسائل الحيطة والحذر مما وعوه وعرفوه من قواعد الأمن، فقد كانت هذه العملية صعبة وشاقة جداً

وتكمن الخطورة في كثرة العقبات وتوقع نسبة عالية للفشل الذي كان يواجه خطتهم من كل صوب وناحية، ومن ثم خطورة الموقف الذي سيواجهونه لو انكشف أمرهم.

لم يكن في خطة اختراقهم لأسوار السجن مكان للمفاجآت، فكل صغيرة وكبيرة أخضعوها للملاحظة والدرس والتمحيص وقلبوها على كل الوجوه، واستعدوا نفسّياً لكل العقبات والعوائق.. لم يكن هناك مكان لأي احتمال للفشل إلا للصدفة التي قد تقلب الموازين.. كان يتوجب عليهم أن يواجهوا عقبات ومصاعب جمة ابتداءً من نقطة تواجدهم في السجن ومروراً بالترتيبات والاحتياطات واللوازم الخاصة بفترة تواجدهم في نقطة الانتظار الثانية التي ستكون محطتها ما بين غرف الجناح الذي يقطنونه وسور السجن، حيث كانت الخطة تتطلب هذا التواجد المتنقل لضمان نجاح تنفيذها، ولتحقيق ذلك كان عليهم أن يمكثوا بعض الوقت في هذا المكان الفاصل بين أقسام السجن والسور، وأخطر ما واجه تفكيرهم هو كيفية قطع وعبور هذا المكان إلى منطقة السور الشائك والمحصن من جميع النواحي..

جميع هذه الصعاب والعراقيل ذللتها عزيمتهم بفعل ما تمتعوا به من تفكير سليم وإعداد جيد لكل خطوة ومرحلة من خطوات ومراحل خطة فرارهم من السجن.

كانوا ثلاثة سجناء أمنيين محكوم عليهم من قبل محاكم صهيونية بالسجن المؤبد مدى الحياة لقتلهم عدداً من الجنود الصهاينة والعملاء المتعاونين مع قوات الاحتلال الصهيوني، وأمضوا فترة زمنية ليست بسيطة من فترة اعتقالهم تنقلوا خلالها بين عدد من السجون، فأكبرهم مضى على وجوده في السجن ثلاثة عشر عاماً عايش خلالها القهر ومر الحياة بآلامها وشقائها ومعاناتها.. وكمال الذي خطرت على ذهنه الفكرة.. يجسد الشجاعة الفلسطينية.. قوي.. جريء، كالنمر في شراسته واشتداد عريكته.. متقد الذكاء.. اختار بعد طوال تمحيص صديقه شوقي لجرأته وحسن رأيه حول فكرة اختراق أسوار السجن فخاطبه قائلاً:

– شوقي؟

– نعم

– أريد أن أطرح عليك فكرة أخذت تشغل دماغي منذ عدة أيام.

– ماهي يا ترى؟؟

رد شوقي متسائلاً:

– الفكرة هي أنني أفكر بخطة للهرب من السجن، ومن جانبي أريد معرفة رأيك في هذا الموضوع.. فهل تعتقد أن بمقدورنا إختراق هذا المكان؟؟

نظر شوقي إلى وجه صديقه كمال متعجباً ثم قال متسائلاً:

– كيف يا كمال.. وهل أنت جاد في طرح فكرتك هذه؟!

– نعم يا شوقي.. هذا ما أردت طرحه عليك لمعرفة رأيك حوله.

– ولكن أخبرني.. هل أنت عازم حقاً على القيام بهذه المحاولة الصعبة والخطيرة؟؟

– نعم وقبل أن تفوتنا فرصة العمر، فالفرصة الآن مواتية للهرب حيث هناك بعض الظروف التي يمكن لها أن تساعدنا وتوفر لنا الحماية المطلوبة.. وحتى تكون في الصورة أكثر فإن أنظار بعض الأخوة تتجه إلى استغلال وجود منفذ يمكن اجتيازه، فقد سمعت كلا من هشام ومسعود وسليم يتهامسون فيما بينهم حول هذا الموضوع، حيث إن لديهم النية في الهروب.

.. وما أن أنهى كمال إجابته حتى تنهد شوقي متألماً..

– أعتقد أن أحداً لا يمكنه الهروب من هذا السجن الذي نتواجد فيه وحتى لو استطاع أي شخص الهروب من هنا فأين المفر.. وأين سيذهب في هذه الصحراء المقفرة القاحلة.. سيموت حتماً؟!

– لا يا شوقي.. إن ما تقوله هو كلام غير واقعي، فالحدود المصرية ليست بعيدة عن السجن ويمكننا أن نسلك الطريق المؤدية إلى هذه الحدود، وبعدها لن يكون هناك مشكلة.

– حسناً يا كمال فكيف لنا أن نهرب إذاً؟؟

– نعم.. الآن بإمكاني أن اشرح لك الخطة المقترحة.. انظر إلى ذلك الباب المتواجد في نهاية القسم، فلو تمكنا من نشر أحد قضبانه الحديدية فإننا سنخرج بإتجاه القسم المجاور الذي لازال قيد الإنشاء والاختباء داخله حتى جنوح الظلام، ومن هناك سنتسلل خفية نحو السور.

– آه يا كمال يا ليت ما تقوله يتحقق لنا يا صديقي العزيز، ومن ثم يصبح كلامك هذا حقيقة مؤكدة.

وأكمل شوقي قوله مستطرداً ومتسائلاً:

– ولكن أخبرني كيف سنخرج ومتى سيكون الخروج؟؟

– إن الخطة تقتضي الخروج من الغرف نهاراً.

– في النهار.. كيف.. والعدد كيف نتغلب على مشكلته؟؟

– هوّن عليك.. هذه ليست مشكلة ولقد أخذتها في الحسبان ودرستها جيداً، فنحن – كما تعرف – تعودنا على بقاء شخص في الحمام أثناء عمليات الإحصاء اليومية التي تجريها إدارة السجن للتأكد من أن عدد السجناء مضبوط وتمام، ولدىّ فكرة يمكن تجربتها بهذا الخصوص لتخطي هذه العقبة.

– ما هي يا ترى؟؟

– الحاجة أم الاختراع.. وتفكيري هداني إلى تجربة رافعة خشبية تثبت داخل الحمام وتكون موصولة بخيط مطاطي يمر عبر ثقب الباب.. فعندما يطلب الشرطي ممن في داخل الحمام الطرق على الباب، كالعادة يقوم شخص يتم تكليفه للقيام بمهمة سحب الخيط بعملية السحب، فتحدث الرافعة عندئذ صوتاً يشبه صوت الطرق.

– حسناً.. إنها فكرة جيدة ورائعة وبدأت أثق في إمكانية تحقيقها ونجاحها، وأنا الآن موافق على خطتك وأرى أن نعرض هذه الفكرة على صديقنا مسعود لنصبح ثلاثة، ومسعود كما تعرفه مناضل ومعتقل قديم، ويمكن الاعتماد عليه في مساعدتنا من خلال خبرته وتجربته، وحيث ذكرت أنت أثناء حديثك قبل قليل بأنه هو الأخر يخطط للهروب اعتماداً على وجود الثغرة التي أشرت لي حولها..

عند ذلك وقبل أن يتم شوقي اجابته قاطعه كمال قائلاً:

– لا مانع أن نصبح أربعة وعليه فأرى أن نشرك معنا أيضاً صديقنا ماهر، وهو شاب يُعتمد عليه كما مسعود.

وبعد أن إتفقا فيما بينهما على الفكرة قاما بعرضها على كل من مسعود وماهر على انفراد، حيث وافق مسعود على فكرتهم، بينما رفض ماهر المخاطرة والمجازفة بمشاركتهم الهروب.

(2)

.. العزيمة الفلسطينية المتمثلة في الفدائيين الأسرى الثلاثة أفشلت كافة الاحتياطات الأمنية البشرية والإلكترونية وتخطتها وأصابتهما بالعمى في مكان وصف من قبل أجهزة أمن مديرية السجون بأنه الأكثر تحصيناً من الجانب الأمني، فالأبراج العالية تحيط به من كل جهة وجانب، وكلاب الحراسة البوليسية الضخمة تنبح لأقل لمحة وهى تجوب ليلاً نهاراً في الأماكن المخصصة لها خلف أسوار السجن، وبكل هذه الإجراءات الأمنية كان يعتقد أن السجن عقدة أمنية مخيفة لا تجعل أحداً يفكر قط بالهرب منه، لأن نجاح أي هروب غير مضمون ومحفوف بالمخاطر....

وهذا السجن الذي أطلق عليه أسم "نفحة" وجد ليكون مقبرة حقيقية للمناضلين أسرى الثورة الفلسطينية، فالغرف مظلمة.. كئيبة.. رطبة الجدران وسيئة التهوية، فأشعة الشمس بالكاد تستطيع أن تتخطى نوافذها، وإن تخطت فهي تدخل متعرجة الخطوط باهتة اللون، وبعد أن تكون قد فقدت دفئها وحرارتها وكأنها خجلى من دخولها من هذه الكوات الصغيرة القابعة في أعلى حوائط الجدران المنخفضة الارتفاع – والتي

تسمى نوافذ – حيث الشبك الملعون الذي يتربع على شبابيك الغرف تتكسر عليه خيوط أشعتها.. وأبواب الغرف أيضاً عبارة عن صاج حديدي محكم الاغلاق بشكل يزيد من كآبة الجو وصعوبة الحياة داخل هذه الغرف.. فالعيش بين هذه الجدران يُذّكر بحشر السمك داخل علب السردين، حيث الغرف نفسها صغيرة الحجم.. مستطيلة الشكل.. أرضيتها من الباطون المسلح غير المستوي والخالي من التبليط، فلا يزيد حجم الغرفة الواحدة عن عشرين متراً مربعاً، ويدخل في إطار هذا الحجم مساحة غرفة الحمام ودورة المياه، كما أن سقف الغرف لا يزيد في إرتفاعه عن المترين ونصف، وفي داخل هذا الحجم الصغير ينحشر ثمانية سجناء، وعلى مدار إثنين وعشرين ساعة يومياً في جو حار خانق صيفاً، وبارد جداً شتاءً؟!

وسجن نفحة هذا صغير الحجم نسبياً مقارنة بالسجون الأخرى، وهو قبل عملية توسيعه وإضافة أجنحة جديدة إليه لم يكن ليتسع لأكثر من ثمانين سجيناً يتوزعون على قسمين يفصل بينهما ساحة صغيرة تستخدم للنزهة والرياضة وينحشر فيها أثناء فترة النزهة اليومية أربعون سجيناً، إضافة إلى طاولة تستخدم لممارسة لعبة كرة الطاولة. ولهذه الساحة أربعة جدران أسمنتية بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف لكل جدار، يعلوها سقف من الأسلاك المتقاطعة والشائكة، بحيث يصبح شكل هذه

الأسلاك عند تقاطعها على شكل فتحات مربعة صغيرة الحجم مما يحجب أشعة الشمس من الدخول بشكل جيد، حيث ما أن تدخل الشمس من بين هذه الأسلاك حتى تصبح ضعيفة وغير كافية لسد احتياجات الجسم من أشعة الشمس وفوق إحدى جدران الساحة يتربع برج صغير الحجم يقبع داخله باستمرار سجانٌ بحوزته جهاز اتصال صغير الحجم ويتسلح ببندقية أتوماتكية الطلقات، وذلك بغرض مراقبة السجناء ومتابعة تحركاتهم أثناء فترة نزهتهم اليومية.. كما أن القسم الواحد يتكون من جناحين متقابلين لبعضهما البعض، يفصل بينهما مردوان بعرض ثلاثة أمتار، ويبلغ عرض الجناح الواحد ستة أمتار، أما طول القسم فيبلغ إثنا عشر متراً، ولكل قسم بوابتان تتكونان من قضبان حديدية سميكة الحجم، ويأخذ شكل الأقسام امتداداً من الشمال إلى الجنوب.

ونظراً لطبيعة تركيبة السجن الغريبة والفريدة فقد جعلت إدارة السجن من بعض الغرف أماكن لبعض المرافق الحياتية الخاصة بالسجناء داخل هذه الأقسام، ولهذا فلا عجب إذا وجدنا مكتبة السجن وماكينة غسل ملابس السجناء وجهاز كي الملابس وغرفة النظافة تتواجد داخل غرف أحد الأقسام، بينما يتواجد في القسم الآخر ما يطلق عليه تجاوزاً عيادة السجن، وهي عيادة خاصة بمعالجة السجناء، وكذلك المخيطة

والمحلقة، إضافة إلى زنازين خصصت لمعاقبة السجناء من قبل إدارة السجن. وبشكل عام فهذا السجن ما وجد وشُيّد إلا خصيصاً لمعاقبة بعض السجناء الأمنيين ممن يعتبرهـم جهاز أمن مديرية السجون وجهـاز "الشين بيت" من النشطاء والخطرين داخل السجون.

الوضـع القاسي والكئيب في هذا المكان يدفع أي شخص إلى التفكير في الهروب من السجن بأي شكل وحال من الأحوال حتى ولو كان ثمن قراره حياته.

لقد تفوقت الإرادة وعزيمة الثائر على كافة إجراءات الأمن والقهر وأثبت السجين السياسي الفلسطيني قدرته على إختراق الحصار والطوق المحكم حوله، حيث لا يعدم الحيلة والوسيلة.. فقاموا بدراسة كل ثغرة وإمكانية لتحقيق أملهم المنشود بتحرير أنفسهم ومن ثم كسر هذا الحاجز الأمني الرهيب. ولم يكن كل شيء سهلاً أمامهم فكل خطوة من خطواتهم تحتاج الى تفكير وحكمة وسرية في العمل والتحرك. فخطة فرارهم كانت تقتضي منهم التسلل والفرار مع جنوح الظلام كغطاء ولكسب المزيد من الوقت عند قطعهم المسافة التي يحتاجونها كنقطة أمان وحماية حتى وصولهم هدفهم مجتازين تلك الصحراء التي يقبع وسطها سجنهم. ونجاح خطة هروبهم كان يتطلب منهم الخروج من غرفهم قبل موعد إحصاء العدد المسائي، والتواجد بعد ذلك في مكان

آمن يفصل بين سور السجن والغرف التي سيخرجون منها انتظاراً لحلول الظلام.

(3)

لم يكن كمال وشوقي وحدهم فقط الذين كانوا يفكرون في الهرب.. وليس كمال وحده أيضاً هو الذي أدرك واكتشف الثغرة، فهناك آخرون من إخوانهم السجناء فكروا بالهروب اعتماداً على هذه الثغرة، حيث الانظار اتجهت نحو هذه الثغرة الملموسة.. ولكن جميع هذه الانظار اقتصر تفكير أصحابها على الجانب النظري دون الجانب العملي، ومن هؤلاء من استمر في تفكيره نحو تحقيق رغبة الهروب، ومنهم من نسي الفكرة لتعذر توفر الإمكانيات لديه أو بسبب بروز أمور خارجة عن إرادتهم. ففي الوقت الذي كان فيه كمال يفكر في الهروب كان هناك في الجانب الآخر كل من هشام وسليم ومسعود ورياض وأبو أسامه وأبو علي وجبر يفكرون في نفس الاتجاه، حيث قاموا بدراسة بعض الخطوات والجوانب في هذا الشأن، كما وضعوا بعض التصورات والاحتمالات.. إلا أن تفكيرهم لم يتحول إلي الجانب العملي التطبيقي، كما أن تفكيرهـم تلاشى فيما بعد لعوامل وأسباب ذاتية وخارجية كثيرة، ولم يبق من هؤلاء مستمراً في تفكيره وخطواته سوى مسعود الذي استطاع من جانبه الحصول على بعض الأشياء والمتطلبات الأساسية

الضرورية لعملية الهروب، حيث أحضر منشاراً أخفاه لحين الوقت المناسب، كما قام بدراسة الظروف الجغرافية المحيطة بالسجن وإمكانية التغلب على المعضلات والمعقيات الطوبغرافية التي ستواجهه بعد إجتيازه لأسوار السجن، وظل مستمراً في خطواته وخططه إلى أن شاء القدر بأن يتعرف على نوايا كمال وشوقي وخطتهم في الهروب، فالتقى وإياهم في الرؤيا.. كما أن كمالاً هو الأخر كان بدوره قد سمع عن تفكير مسعود ورغبته في الهروب عندما كان يخطط لذلك مع كل من هشام وسليم.

وعلى الرغم من كل ما قام به مسعود وكمال وشوقي من خطوات لإنجاح خطتهم، إلا أنه إعترضت طريقهم بعض العقبات والمصاعب الناتجة عن معارضة بعض الأخوة العاملين في الجهاز التنظيمي لخطة الهروب هذه عند عرضها عليهم، وذلك تحسباً لأي إنعكاسات سلبية قد تؤثر على الوضع في السجن أو تهدد حياتهم بالخطر. إلا أن هذا الاعتراض لم يستمر طويلاً، فبعد جهد جهيد من النقاش المطول الذي قام به مسعود تلاشت هذه المعضلة وتحول موقف الاعتراض السلبي الى موقف تأييد إيجابي وذلك بفعل دعم فكرتهم بالهروب من قبل أحد الاخوة الذين كان لهم دور بارز في التنظيم، حيث سبق لهذا الأخ نفسه أن درس إمكانية الهروب مع مسعود وسليم. فالأخ هشام الذي دعم

الخطة رأى إمكانية نجاحها بعد أن أطلع على كافة تفاصيلها، وإن كان له رأى آخر في هذا الموضوع وهو فيما يتعلق بكيفية اجتياز المنطقة المحيطة بالسجن بإتجاه الحدود المصرية، والتي هي في جملتها عبارة عن جبال وهضاب وعرة تنعدم فيها المسالك، حيث كان يرى ضرورة الاعتماد على الأطلس الجغرافي للإستعانة به في معرفة طوبغرافية المنطقة وطبيعتها الوعرة وأسهل المسالك فيها، ومن ثم اتجاه موقع الحدود المصرية.. بينما اعتقد مسعود – عند مناقشته المسألة معه – بأن في الامكان اجتياز هذه المنطقة ليلاً باتجاه الحدود المصرية من خلال الاعتماد على تحديد اتجاه أضواء كشافات السجن ومن ثم جعلها بإستمرار خلفهم أثناء سيرهم.

وبهذا الدعم لخطة الهروب من قبل هشام تلاشت معضلة كبيرة كادت أن تُفشل كل مخططاتهم وحساباتهم نحو عالم الحرية.

(4)

بعد نجاح التجارب التي أجروها للتغلب على معضلة فتح الأبواب، كان عليهم العمل بجدية لمواجهة الخطوة الثانية، حيث سيتعين عليهم البحث عن طريقة للتسلل من غرفهم في وضح النهار دون رؤيتهم من قبل الحارس السجان المتواجد في ممر القسم الذي يقطنونه، فطريق عبورهم إلى محطة الانتظار الأولى في خطتهم تقتضي انسلالهم من المكان الذي يجلس فيه السجان باستمرار والمؤدي إلى الباب المكون من عدد من القضبان الحديدية.

كل شيء في خطتهم أصبح جاهزاً قبل تنفيذ العملية، فقد تم نشر أحد القضبان الحديدية على فترات، وذلك من قبل أحد الاخوة العاملين في ممر القسم، والذين قاموا بمساعدتهم لإنجاح خطتهم وإخراجها إلى حيز الوجود، كما تم اخفاء مكان النشر بمواد الطلاء لتمويهها وإخفاء أثارها. ومما ساعد في الاخفاء وجود طاولة كانت موضوعة في هذا المكان أمام الباب نادراً ما يتم تحريكها من مكانها القابعة فيه. أما السجان فتم إلهاؤه وخِداعِه بأن قام المناضلون عمال النظافة العاملين في القسم بأخذه إلى ساحة النزهة قبل بدء تنفيذ العملية بلحظات، وهناك قام

أحدهم باللعب معه كرة طاولة، حيث كان قد تم ترويضه على ذلك من قبل، ليتسنى لهم الخروج من غرفهم واجتياز ممر القسم بأمان.

وعند ساعات ما بعد الظهر تسلل ثلاثتهم واحداً إثر الآخر تحت غطاء من المراقبة التي وفرها لهم إخوانهم العاملون داخل القسم، ليختفوا بلمح البصر عن الأعين، منزويين في غرفة صغيرة غير مأهولة وبعيدة عن الاهتمام بجوار غرف القسم الذي خرجوا منه، وذلك بانتظار هبوط الظلام، لترتسم عندئذ تباشير السعادة والفرح على محيا الجميع، فاحمرت الوجوه وجرت الدماء في عروق الأجساد بعد أن انزاح كابوس الترقب الثقيل عن الصدور.

أكبرهم يناديه أصدقاؤه باسم مسعود وهو الأقدم في السجن، فاحتضنوه وتبادلوا معه التهاني بعيونهم فهي لغة الكلام بينهم الآن، لما لا وهو الأكبر سناً والأقدم في السجن ومعروف بين أصدقائه بالتواضع والصدق والاحترام. مسعود الذي رفضت دوائر الأمن الصهيونية الافراج عنه في صفقة تبادل الاسرى سنة 1985م ها هو الآن يحرر نفسه بإرادته. فباركوا لبعضهم البعض على هذا النجاح، وبارك شوقي لمسعود وكمال همساً وأضاف متسائلاً:

– ما هي تصوراتكم عن فرحة إخواننا الذين تركناهم وراءنا في السجن.. وماذا سيقول الآن الأخ هزاع وهشام وماهر وأبو حسام وأبو ماهر والعدوي

وأبو عاهد؟؟

– أشعر أن فرحتهم ستكون كبيرة، يكفي ما أنجزناه، فقد أفشلنا بعض التوقعات التي اعتقدت بأننا سنفشل منذ اللحظة الأولى لخروجنا.

.. هذا ما همس به كمال مجيباً، وأضاف مسعود معقباً على كلام شوقي قائلاً:

– إننا يا شوقي لن ننسى تضحيات إخواننا هؤلاء وما قدموه لنا من تسهيلات ومساعدات ورفعهم لمعنوياتنا أيضاً، فخطتنا لم تكن لتنجح لولا مساعداتهم لنا، فهم إخواننا ولننتظر حتى نجاح باقي خطوات الخطة وعند ذلك سنقطع على أنفسنا عهداً بتحريرهم إن شاء الله، وعلينا الآن يا إخوان أن نترك التحليل والتصورات جانباً لنبدأ بوضع كل جهدنا لإنجاح الخطوة الثانية، فمشوارنا لازال طويلاً ونحن لازلنا لم نخرج من السجن، فلنترقب ماذا سيحدث عندما يحين موعد أخذ العدد، وهذا ما يجب أن يهمنا ويقلقنا كثيراً الآن.

وقبل أن ينهي مسعود كلامه قطع كمال عليه الحديث، حيث كان الزعل والتأثر بادياً على وجهه، وبضيق وألم قال:

– ليت ماهر وافق على مشاركتنا، ما كان يظن أن الخطة محبوكة بهذه المهارة.. سيفتقدني فكل أصدقائه وأبناء مجموعته في القضية قد تحرروا إلاّ هو. فكيف سيكون وضعه النفسي الآن بعد نجاح خطتنا؟

(5)

الفرحة عمت جميع الغرف التي خرج منها الرجال الثلاثة.. الجميع يترقبون فالوقت ما زال مبكراً لتنفيذ الجزء التالي من الخطة والخاص باختراق سور السجن بنجاح، حيث هذه الخطوة مرهونة بهم الآن.

في هذه اللحظات وبعد أن خرج كل من مسعود وكمال وشوقي من غرفهم كان الوقت لا يزال ظهراً فالساعة كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر على وجه التقريب. وفي هذه اللحظات العصيبة والمشحونة بالتوتر الذي عايشه الجميع، تصادف أن حضر مدير السجن إلى الأقسام وسار باتجاه مكتبة السجن مجتازاً ساحة النزهة، بينما كان بعض المناضلين السجناء يتواجدون فيها كعادتهم في مثل هذا الوقت من كل يوم حيث موعد فترة نزهة ما بعد الظهر. وقد أحدث هذا الحضور المدهش والمثير للقلق من قبل المدير جواً من الارتباك والتوجس داخل السجن وخاصة بين أوساط كل من لديهم معرفة بعملية الهروب من الأخوة والرفاق.. فأخذت النفوس تتساءل في كوامنها عن سبب هذا الحضور المفاجئ لمدير السجن.. ومع هذا التساؤل زادت

دقات القلوب ووضعت الأكف فوقها لينحبس الصوت خلف الحناجر، ووجم الجميع لحظة صعبة وكأن على رؤوسهم الطير، وذلك ترقباً لانفراج الموقف وجلاء الأمور بضرب الشك باليقين لمعرفة سبب حضور المدير في هذه اللحظة بالذات. وبينما كانت أعين جميع من في الساحة تتجه نحو مدير السجن، قدم من ناحية هذا الأخير أحد السجانين وهو يخف الخطا، وسار بإتجاه ساحة السجن مجتازاً الممر، حيث طلب من الأخ ممثل السجناء أمام إدارة السجن، والذي كان يتواجد بدوره في الساحة، الحضور إلى المدير للإجتماع به. وهذا ما زاد من درجة مؤشر الهموم والتوتر مرة أخرى، فبرزت التساؤلات عند البعض عن سبب هذا الطلب للأخ ممثل المعتقل وإمكانية حصول أمر ما قد يكون قضى على الخطة؟؟

تساؤلات كثيرة جرت في الباحة حيث أخذ المناضلون فيما بينهم يتصورون سبب هذا الطلب. وفي خضم هذه التساؤلات أخذ كل من أبى ماهر وأبى حسام يضعون التصورات والاحتمالات فيما بينهم.. فسأل أبو حسام صديقه أبا ماهر قائلاً:

– بماذا تفسر أخي أبا ماهر حضور المدير المفاجئ؟؟

– أولاً كن مع الله يا أبا حسام والحمد الله على كل شيء.. وأتصور يا موسى بأن حضور المدير في هذا الوقت ومن ثم طلبـه للأخ هشام هو

أمر اعتيادي وروتيني وليس له أي مغزى، ولا أعتقد بأن شيئاً ما قد حصل لمسعود وكمال وشوقي.

– يا ريت يا جمال وإن شاء الله بيكون تصورك صحيح وفي محله.. فأنا في الحقيقة مش مرتاح من مجيىء المدير وحاسس قلبي بيدق، وخايف أن تكون خطة هروبهم قد فشلت؟!

– هوّن عليك يا موسى وصبرك بالله وكلها خمس دقائق وبتنجلي الأمور وذلك بعد خروج الأخ هشام من اجتماعه مع المدير، وبأحب أقول لك يا أبا حسام بأنه لو تم اكتشاف الخطة لما وجدت الوضع في السجن على ما هو عليه، فلو –لا سمح الله – اكتشفتهم إدارة السجن وهم مختفون، لصفر زامور الإنذار ومن ثم أعلنت حالة الطواريء في كافة أرجاء السجن، ولما قام المدير بطلب هشام، وكذلك لو عمدت الادارة إلى إدخالنا للغرف.

– يعني هيك رأيك وتصورك يا جمال؟؟

– بكل تأكيد يا موسى وربك بيسترها، وهم قبل أن يخرجوا توكلوا على الله.. فلا داعي إذاً للقلق على ابن عمك كمال.

– المشكلة يا أخ أبو ماهر مش مشكلة ابن عمي فقط بل هي مشكلة تحدي سياسة مدير السجون الجديدة التي إنتهجها النازي الحقير "دافيد ميمون" ومن ثم افشال مخططاتها التصفوية، أي أن العملية في حد

ذاتها تعني وجود.. أو.. لا وجود. ومن هنا يجب أن تفهم بأنني غير قلق على ابن عمي فهو زيه زي الآخرين، وعلى كلٍ لننتظر حتى خروج الأخ هشام

من عند المدير وذلك ليرتاح تفكيرنا أكثر.

لم يمكث هشام في جلسته مع المدير كثيراً من الوقت، حيث خرج والارتياح بادياً على وجهه، فهو من جانبه ومنذ أن طلبه المدير للاجتماع به كان هادئ الأعصاب، ولم يعتقد أن طلب المدير له سيكون مرتبطاً باحتمال حدوث أي شيء بالنسبة لخطة الفرار، بل اعتبر الطلب بحضوره من الأساس أمراً عادياً خاصة وإن علاقة المعتقلين مع إدارة السجن كانت متوترة وذلك بسبب السياسة الجديدة لمديرية السجون. وبخروج هشام من اجتماعه مع مدير السجن خفت حدة درجة التوتر عند الجميع، كما علت تباشير الارتياح وجه الكثير من الأخوة الذين أصابهم القلق من هذا الطلب المفاجئ.

في هذه اللحظة وما أن رأى موسى هشاماً وهو خارج من إجتماعه مع المدير حتى نادى عليه قائلاً:

– إيش يا همشري.. طمئنا " أبيض وإلاّ أسود "؟؟

– لا.. أبيض يا موسى وريّح بالك، فأنا كنت أتحدث في الاجتماع وأنا مرتاح القلب وبارد الأعصاب.

– بدك الصحيح.. والله يا همشري إنه طول وقت جلوسك مع المدير وأنا خايف يكون قد حصل للشباب حاجة، فكنت حاطط كفي على قلبي وبأقول يا رب، يا ساتر تستر.

واستمر الاثنان في دردشتهما وحديثهما سوياً إلى أن أُعلن عن انتهاء وقت النزهة من قبل أحد المعتقلين المكلفين اعتقالياً بالإعلان عن انتهاء مدة فترة النزهة.

وبدخول الجميع إلى الغرف توترت الأعصاب مرة أخرى حيث أصبحت مشدودة أكثر تجاه إخوانهم الثلاثة، وبإنتظار معرفة ما سيحدث فالأعين كلها كانت تتجه نحو المجهول.. ودقات القلوب تزداد.. وأنفاس الجميع أخذت في الانحباس مع اقتراب موعد إجراء الإحصاء المسائي الإعتيادي "الإسفراه" فنجاح الخطوة الأولى سيخضع للإختبار الآن، وعليهم أن يواجهوا لحظة حاسمة.

كل شيء في هذه اللحظات كان على ما يرام، فتفقد السجناء المكلفين بتغطية عملية الهروب لمواقعهم وأعيد تكرار تجريب عملية الدق على أبواب الحمامات في الغرف التي خرجوا منها، وتحسباً لأي طارئ فُحصت خيطان الشد مرة أخرى، فظهر أن كل شيء جاهز تماماً.

بدأ السجانون في إحكام إغلاق أبواب الغرف بالأقفال، كما تفقد الضابط المسؤول عنهم من ورائهم الاجراءات والاحتياطات اللازمة كأمر

اعتيادي تمهيداً لقدوم الضباط المكلفين بإجراء عملية إحصاء السجناء النهائية لذلك اليوم.

وعند وصول ضباط الإحصاء إلى أقسام السجن أخذوا كعادتهم بالإحصاء

من أول غرفة في القسم لينتقلوا بعد ذلك إلى الغرفة المجاورة والتي يليها، ليتجهز عندئذ السجناء في الغرفة التي كان قد خرج منها أحد الثلاثة، فاستعد السجين المكلف بسحب الخيط المطاطي من باب الحمام، للقيام بواجبه في اشعار ضباط الاحصاء بأن شخصاً ما يتواجد داخل الحمام، وهي العادة التي تم تعويدهم عليها. وما أن أصبح ضباط العدد أمام الغرفة حتى ألقوا بتحيتهم المألوفة للسجناء داخل الغرفة، وبدأوا بتعداد نزلاء الغرفة وعند انتهائهم من إحصاء من هم واقفون أمامهم طلبوا كعادتهم من السجين المتواجد داخل الحمام بالدق على الباب ليتأكدوا من وجوده. وعلى الفور سُحب طرف الخيط من قبل من هو واقف أمام باب الحمام، ليسمعهم الصوت الذي اعتادوا عليه يومياً، فانصرفوا إلى الغرفة التي تليها وهي أيضاً خرج منها أحد الثلاثة، فحصل معهم نفس ما حصل في الغرفة السابقة، ونفس الشيء حصل في الغرفة المجاورة الأخرى التي كان ثالثهم قد خرج منها. وما أن فرغ ضباط الاحصاء من واجبهم في تعداد السجناء حتى عادوا

أدراجهم الى حيث قدموا، لتُغلق وراءهم أخر الأبواب وهم سائرون في طريق عودتهم إلى مكاتب إدارة السجن.

حالة من السكون خيمت الآن على جميع السجناء داخل الغرف، في الوقت الذي كان فيه مسعود وكمال وشوقي ينتظرون انتهاء عملية الاحصاء بفارغ من الصبر والترقب لكي يطمئنوا على نجاح خطتهم، ولرغبتهم في معرفة ما سيحدث لهم في هذه المرحلة، كانوا قد أخذوا يتنصتون على خشخشة المفاتيح في زرافيل أبواب الغرف عندما تم إغلاقها من قبل السجانين، كما استمعوا إلى صوت السجان وهو ينادي السجناء بتجهيز أنفسهم استعداداً للإحصاء. وكان أكثر ما أثار أعصابهم وزاد من تواثر أنفاسهم هو لحظـة ترقبهم لإنتهاء عملية الإحصاء عندما حان موعدها، فما أن انتهى الإحصاء دون كشف أمر فرارهم حتى انفرجت أساريرهم، فعانقوا بعضهم البعض، ودارت كؤوس الشاي بين أيدي إخوانهم السجناء ممن تبقوا في الغرف، حيث شرب جميعهم نخب الفرحة والنصر، ليغرقوا بعد ذلك في النقاش والتحليل والتخمين عن مدى إمكانية نجاح محاولة الهروب هذه ومن ثم مصير كل من مسعود وكمال وشوقي.

(6)

سكن الثلاثة بدون اثارة أي حركة يراقبون الشمس وهي تلملم خيوط أشعتها لتعلن عن قرب غروبها خلف الصحراء.. وما أن بدا الظلام يرخي سدوله حتى تحركوا باتجاه موقع آخر ليس بعيداً عن موقعهم المتواجدون فيه، ليتسنى لهم اختراق أسوار السجن من خلاله، وذلك قبل أن تقوم إدارة السجن بربط كلب الحراسة الضخم في طريق الموقع الذي سيجتازون إليه.. ومن موقعهم هذا أخذوا يتفقدون المكان جيداً، فعملوا بأنظارهم على تفحص أضعف نقطة في سور السجن الشائك ليستطيعوا الخروج منها.

صعاب وعقبات كثيرة كانت تنتظر طريقهم، وبعضاً من هذه الصعاب توقعوها فتحسبوا لها، ومنها ما لم يفطنوا له فزاد من همومهم.. وأمام كل هذه الهموم والصعاب لم تتحطم عزيمتهم ولم توهن إرادتهم لأنهم كسجناء لا يعرفون اليأس، ومع زيادة التحديات وضيق الوقت أخذت الأفكار تراودهم لتزداد رغبتهم في تحقيق أي شيء، فتجمعت أفكارٌ عديدة في رؤوسهم للبحث عن طرق أمنة ومناسبة للخروج من هذا المكان الذي أصبحوا فيه، فقال مسعود متسائلاً:

– ما العمل الآن؟؟

ورد كمال قائلاً:

– أرى يا مسعود بأنه يتوجب علينا أن نسلك هذا الممر وأشار بيده تجاه ناحية الممر.

– ولكن ألم ترَ يا كمال بأنه يوجد في تلك الناحية باباً مغلقاً؟؟

تساءل مسعود متنهداً.

– لا يا مسعود.. أنت مخطئ.. أنظر إلى الباب إنه ليس محكم الإغلاق كما تعتقد.

.. وبينما هم يتناقشون دفع شوقي الباب إلى أعلى فإذا به ينفرج عن فتحة صغيرة اتسعت لدخولهم منها نحو إحدى الغرف المجاورة لساحة النزهة الخاصة بالأقسام الجديدة والتي لم يُفرغ العمل من بنائها وتشييكها بعد، حيث استخدمت نقطة اجتياز وعبور في طريقهم نحو أسوار السجن الشائكة.. وكم كان ارتياحهم لهذا الاكتشاف الذي أزال ما أصابهم من توتر نفسي.

أجال الثلاثة ببصرهم داخل ممر القسم حيث وجدوا أنه تبقى أمامهم حاجز أخر كان عليهم أن يتغلبوا عليه بدقة متناهية نظراً لوقوعه بإتجاه أحد أبراج المراقبة مباشرة، ومن ثم إمكانية سماع الحارس الجالس في ذاك البرج لصوت المنشار وهو يجز القضبان الحديدية التي يتعين

عليهم قص أحدها لإيجاد منفذ لهم كي يتسللا منه، وفوق هذا المكان يتربع أيضاً شبك حديدي ذو فتحات صغيرة يتطلب الأمر جهداً وحذراً شديداً لرفعه، ولحسن حظهم أنهم حملوا معهم بعض إحتياجاتهم من الأدوات والحاجيات اللازمة لهم في مهمتهم. وبينما هم يجولون بأبصارهم داخل ممر القسم تنهد كمال فجأة تنهيدة عميقة ورفع بصره نحو سقف الغرفة قائلاً:

– لم نكن نتوقع ذلك يا مسعود.. فهذا ما لم يكن وارداً في الخطة!!

– لا يا كمال.. صحيح أننا لم نتوقع ذلك ولكن هذا ليس بالشيء الصعب ولا المستحيل أمامنا مقارنة بما أنجزناه حتى الآن.. فلا داعي لليأس وعلينا أن نبدأ بمعالجة ذلك حالاً دون إبطاء حتى لا نفقد دقيقة واحدة من وقتنا وربك هو الستار، وإن شاء الله تتيسر الأمور في وجوهنا.

– حسناً فلنبدأ الآن في نزع جزء من هذا الشبك المتربع فوق القضبان وأرى أن يقوم شوقي بمراقبة الحارس المتواجد في البرج المرئي لنا وذلك لئلا يتصادف وان يلتفت نحونا في حالة سماعه صوت قطع أسلاك الحديد.

– نوافقك الرأي على هذا الاقتراح يا كمال لأنه صائب فعلاً، وهو ضروري لضمان نجاح عملنا وخطتنا.

في هذا الوقت كانت حزمة ضوء الكشاف المسلطة من البرج تدور بشكل متقطع في جميع أرجاء وزوايا السجن، ومع انبعاث إشعاع هذه الكشافات في كل مرة كانوا يتوقفون عن القطع ويزدادون إنحناءاً والتصاقاً بالأرض لئلا تلتقطهم حزمة ضوء الكشاف التي تلاحقها عينا الحارس.

سار العمل معهم على قدم وساق.. وما أن فرغوا من عملية قضم أسلاك الشبك المتربعة فوق القضبان حتى بدأوا بنشر القضيب الحديدي المراد نشره.. وبينما هم منهمكون في عملهم فإذا بشيء ما يقطع عليهم صمت الكلام.. إنه وقع أقدام كانت تسير باتجاه إحدى بوابات السجن الداخلية المؤدية إلى الأقسام المتواجد داخلها السجناء، وتبع ذلك خشخشة مفاتيح وصوت أبواب حديدية تفتح وتغلق.

انتبه شوقي لتلك المفاجأة فعمل على تنبيههم لذلك قائلاً:

– مسعود.. كمال.. توقفوا عن النشر.

– ماذا حصل يا شوقي.. ولماذا أنت مضطرب.. ماذا هناك.. أخبرنا؟؟

– لقد سمعت وقع أقدام تسير باتجاهنا، واخشى أن يكون أمر هروبنا قد انكشف.

– لا.. لا داعي للخوف والقلق يا شوقي...

وأكمل مسعود كلامه قائلاً:

.. يبدوا أن كريم وجبر قد عادا لتوهم من المحكمة، فهم خرجوا منذ الصباح الباكر لرفع دعوى قضية ضد إدارة السجن لمصادرتها المعاطف التي كانت بحوزتهم، وإذا كان كلامي هذا لا يطمئنك فهيا بنا ننظر باتجاه صوت وقع الأقدام حتى نتأكد من ذلك، وما علينا إلا أن نطل برؤوسنا قليلاً حتى لا يرانا أحد وليتسنى لنا المشاهدة.

– حسناً.. إفعل ذلك لكي نطمئن.

وما أن نظر شوقي ليتأكد حتى شعر بأن تياراً بارداً يسري في شرايين جسده، فقد سمع حينها صوت كريم وهو يتحدث مع أحد السجانين الذين كانوا بصحبته وذلك عند اجتيازهم إحدى البوابات الحديدية في طريقهم لإدخاله هو وجبر إلى غرفهم.

عاد السجانون إلى مكاتب الادارة بعد أن أغلقوا الأبواب خلفهم ليتبدد عندئذ القلق الذي إعترى ثلاثتهم برهة من الوقت فأعادوا مباشرة عملهم سريعاً.

تنفس الجميع الصعداء وكل شيء أصبح الآن على ما يرام.. فقد فرغوا من عملية النشر، وما عليهم الآن إلا انتظار ثقل الظلام حتى تحين اللحظة المناسبة لتسللهم تحت غطاء الظلام.

وفي إحدى زوايا الغرفة التي هم فيها كانت هناك على الأرض ملقاه كومة من الملابس القديمة التي استخدمها العمال الذين عملوا في تمهيد وترتيب هذا المكان حيث لا زال العمل قائماً في هذا البناء.

نظر شوقي إلى هذه الملابس القديمة وأشار قائلاً:

– ما رأيكم أن نستبدل ملابسنا بهذه الملابس.. فهي تعطينا شكل وملامح العمال؟؟

– جيد ما يقوله شوقي يا مسعود وأنا أثمن رايه.. فهذه الملابس في حالة إرتدائنا لها ستعمل على تمويهنا وإبعاد الشبهة عنا فيما لو صادفنا شخص ما في طريق سيرنا.

– نعم فهذا صحيح وأنا أتفق معكم فيما ستؤمنه لنا هذه الملابس.

قال مسعود ذلك بينما كان يتفقد ساعته، حيث كانت عقاربها تشير إلى الحادية عشر ليلاً، فذّكر حينئذ كل من شوقي وكمال بزمن الساعة.. فألقوا نظرة أخيرة على السجان القابع في برجه في محاولة منهم لمعرفة مدى انتباهه ويقظته. وبعد أن ايقنوا من غفوته أومأ مسعود لشوقي بالانسلال من بين القضبان بخفة، وما أن لامست قدماه الأرض حتى ركض سريعاً إلى جهة السور المحجوبة عن أعين حراس الأبراج متدارياً بجوار حائط نهاية القسم، وما إن وصل الأسلاك الشائكة حتى رفع جزءً منه بلمح البصر لينفذ من خلال هذه الفتحة نحو الوادي

المنخفض والذي يحادي سور السجن، حيث لا يبعد عنه سوى أمتار قليلة، وعند ذلك تشجع كمال ولحق به فسلك نفس الدرب الذي سلكه شوقي وقام برفع السلك الشائك إلاّ أنه قبل أن يستطيع الخروج تعثر بأحد الأسلاك الشائكة فسالت الدماء من أسفل ساقه، ولكن هذا الجرح لم يكن مؤثراً ليثنيه عن سيره الذي تابعه بسرعة، ليختفي بعد ذلك عن الانظار. لم يبق في الداخل الآن سوى مسعود فجهز نفسه هو الآخر ليلحق بهم، فالتفت يميناً وشمالاً وألقى نظرة أخيرة بإتجاه السور، وعندما تأكد له سلامة كل شيء حشر نفسه بين القضبان المقطوعة، وبعد أن تسنى له التحرر من بينهما اتجه بسرعة الريح نحو السور ومنه باتجاه كل من شوقي وكمال الّذين احتضنوه مهنئينه بهذا العبور. هذا ومن حسن حظهم أن الكلب الذي تعودوا على سماع نباحه في هذا الجزء من السور كان قد تم نقله من مكانه مؤقتاً منذ يومين، وهذا ما ساعد على سهولة ونجاح اجتيازهم للسور.

نظر ثلاثتهم إلى بعضهم البعض حيث كانت الدهشة تسيطر عليهم، فهم غير مصدقين أنفسهم بأنهم أصبحوا الآن أحراراً خارج أسوار السجن.

مكثوا في مكانهم أسفل الوادي الذي إختبئوا فيه برهة من الوقت التقطوا خلالها أنفاسهم وأعدوا العدة لمشوارهم القادم لإكمال خروجهم من

المنطقة، فكل شيء في خطة تحركهم مُعد له مسبقاً بشكل نظري ولم يبق عليهم الآن سوى السير جنوباً بإتجاه الحدود المصرية التي لم تبعد عن مكان السجن سوى خمسة وعشرون كيلو متر.

تأهبوا من مكانهم وقبل أن ينطلقوا ألقوا النظرة الأخيرة على السجن الذي قهروا أسواره، فتذكروا إخوانهم السجناء الذين تركوهم خلفهم يعانون من سوء المعاملة وشطف العيش وقساوة السجان وصلفه.. تذكروا أيضاً إخوانهم الذين ساعدوهم لإنجاح هروبهم وهم على يقين بأنهم لن يناموا في هذه الليلة ترقباً لانتظار ما سيحدث معهم.

(7)

وقف الثلاثة وتفرسوا نجوم السماء مليّاً ثم ألقوا نظرة أخيرة على السجن وحراسه حيث ظهرت لهم أضواء السجن ضعيفة واهنة فاشلة قهرتها عزيمتهم.. تحركوا في سيرهم يطوون الأرض في طريقهم بين الوديان والجبال الوعرة، فسلكوا الطرق الوعرة والشاقة البعيدة عن أعين المراقبة.

السير تقدم بهم ليصبح المكان المراد الوصول إليه يقترب شيئاً فشيئاً بالرغم من عدم قدرتهم على التمييز والتحديد بسبب وعورة الجبال وعدم درايتهم وخبرتهم بمسالكها ودروبها.

الظلمة لا زالت حالكة السواد وأضواء السجن أخذت تتضائل عن عيونهم أكثر فأكثر، إلاّ أنهم لا زالوا يشاهدون النور المنبعث من فوانيس وكشافات السجن القابع على إحدى التلال العالية والمقابلة لطريق سيرهم أينما ذهبوا.

استمروا في السير والدوران بين الجبال والتلال الصخرية دون أن يسلكوا الطريق المؤدية إلى الحدود المصرية، فتنبه كمال لهذا المأزق

الذي وقعوا فيه وكان عليهم أن يتداركوا ذلك بسرعة نظراً لضيق الوقت، حيث نور

الصباح على وشك الإنبلاج ايذاناً بإنطلاق فجر يوم جديد.

في هذا الوقت وحيث كان التعب قد أصاب قواهم أخذت قطرات من العرق البارد تبلل ملابسهم وساد جو من الصمت الذي لم يقطعه سوى وقع خطوات أقدامهم الممتزجة بلهاث أنفاسهم المتتابعة، وبينما هم يدبون الخطا في سيرهم، توقف كمال عن المشي فجأة وضرب كفه اليمني بكفه اليسرى، ثم قطع الصمت قائلاً:

– يا إلهي.. ضللنا الطريق يا مسعود؟!

– لا تستعجل في الحكم على مسيرتنا يا كمال.. علينا الآن أن نكمل سيرنا لنرى إن كنا نتجه في الطريق الصحيح أم أننا فعلاً قد تهنا في هذه الصحراء.. فما رأيك يا شوقي؟؟

– نعم أوافق على ما يقوله مسعود واعتقد أن اقتراحه جيد فلنر ماذا سيحدث والمهم عدم إضاعة أي ثانية من الوقت.

– ولكن لقد أنكهنا التعب والعطش، وهذا لن يساعدنا على السير بسرعة، وعلى كلٍ هذا يبقى رأيّي وأنا لا أجبركم على الأخذ به، وإذا كنتم تصرون على السير في نفس الاتجاه الذي نحن فيه فهيا بنا يا أخوان.

استمروا في سيرهم حتى أخذ منهم التعب والارهاق مآخذه دون أن يلمسوا ما يشير أنهم سيحققون مبتغاهم. فطريق سيرهم لازالت تبدوا أمامهم طويلة ومتعبة بالرغم من عدم بعد المسافة التي سيجتازونها وذلك نظراً لوعورة تضاريس الارض والتي جعلت هذه المسافة تبدوا أمامهم وكأنها مئات الأميال فقد كانوا يسيرون بين الجبال والتلال ليعودوا إلى نفس النقطة التي تحركوا وانطلقوا منها.

في هذا الوقت الذي أخذ فيه التعب منهم مآخذه، بدأ الظلام يتراجع تدريجياً فاسحاً المجال أمام فجر جديد، كما بدأت نجوم السماء تخبوا رويداً رويداً ليتبدد معها جزءً من هذا الظلام، ومع تبدده وانقشاعه من أمام أعينهم كانت تزداد حيرتهم ومخاوفهم، وبينما هم حائرون في طريق سيرهم تساءل كمال مرة أخرى مخاطباً إياهم قائلاً:

– إننا لن نصل إطلاقاً ما دمنا نسير على هذا الشكل.. فعلينا أن نعود إلى اتجاه السجن ليتسنى لنا بعد ذلك تحديد الطريق بصورة أفضل ومن ثم السير للوصول إلى أقرب موقف لطريق الاتوبيسات المؤدية إلى مدينة بئر السبع ومن هناك باستطاعتنا إستقلال سيارة عربية لنقلنا إلى مدينة غزة.. فما رأيكم الأن في ذلك؟؟

– حسناً ما تطرحه يا كمال..

قال شوقي ذلك ثم أكمل معلقاً:

وعلينا إذاً أن نملك هذا الاختبار الجديد لأن التعب أنهك قوانا ونور الفجر يزحف في الظلام حيث ستحدق حين ذلك المخاطر بنا من كل صوب وناحية...

وقبل أن يكمل.. قطع مسعود حديثه معلقاً بصوت يشوبه القلق والتأثر حيث قال:

– يبدوا أننا نسير في منطقة تابعة لأحد معسكرات الجيش، وهذا يعني أننا أصبحنا محاصرين في منطقة عسكرية.. فأنظروا إلى ذلك الضوء المنبعث من أعمدة قليلة الارتفاع، إن ما يلمع أمام أعيننا ما هو إلاّ شكل للخيام، وذلك من تأثير انعكاس الضوء عليها.

– إذاً ماذا ننتظر؟؟

– قال كمال ذلك متسائلاً ثم أضاف:

علينا أن نتحرك على وجه السرعة للخروج من هذا المكان وإلا اعتقلنا وخسرنا كل ما أنجزناه حتى الآن.

تحركوا بسرعة دون توقف وبينما هم سائرون في طريقهم اتجه صوبهم شعاع أحد الكشافات المنبعث من برج للحراسة في معسكر الجيش الذي شاهدوه لتوهم.

– انبطاح.

صرخ مسعود بهم عند ذلك وارتمى على الأرض حيث تبعه جميعهم، فاختفوا بذلك عن شعاع الضوء المرسل نحوهم.. وما هي إلا لحظات حتى تابعوا سيرهم بسرعة حذرة بعد أن استشعروا بالطمآنينة والأمان.

بدا الليل يطوي صفحته فاسحاً المجال أمام ضوء النهار، فانقشع الظلام

وأخذ قرص الشمس يبزغ رويداً رويداً لتبدأ الشمس في إرسال خيوط أشعتها، ومع ظهور هذه الخيوط كانوا قد أصبحوا على مقربة من السجن مرة أخرى بعد أن ضلوا الطريق، فألقوا عليه نظرة ملؤها الأسى والقلق لما تحمله هذه الرؤية من ذكريات أليمة ومشاعر مؤثرة.. فاجتازوا مكانهم هذا حتى وصلوا طريق السيارات العام، ومن موقعهم هذا تقدموا بضع خطوات باتجاه إحدى المحطات الصغيرة الخاصة بوقوف الاتوبيسات الذاهبة إلى مدينة بئر السبع وما يحيطها من قرى ومناطق.

(8)

تقترب عقارب الساعة الآن من السادسة صباحاً وحركة سكون عميقة تخيم على سجن نفحة، ولم يقطع هذا السكون سوى زقزقة بعض الطيور المغردة من فوق السجن وسط الصحراء.. ومع تغريد هذه الطيور وشقشقتها بدا بعض السجناء في الغرف التي خرجوا منها في التململ داخل فراشهم والسرور ظاهراً على محياهم، حيث إخوانهم الذين عانوا مثلهم قد استطاعوا فك أسرهم وتحرير أنفسهم، محطمين بذلك نظرية الأمن الصهيوني التي طالما تبجح بها قادة الكيان الصهيوني. فهؤلاء بفرارهم اخترقوا حاجزاً رهيباً من الجدار الأسمنتي الذي طالما نغص عليهم عيشتهم وكرب حياتهم.

في هذا الوقت أخذت إدارة السجن تتأهب استعداداً ليوم جديد.. فبدأ الحراس بالتحرك من أماكنهم لإجراء عملية الإحصاء الصباحية الاعتياديه.. وكما في كل مرة أخذ صوت السجان المكلف بإيقاظ المعتقلين وتهيئتهم داخل غرفهم، ينخر في سماعة مكبر الصوت وعلى غير عادته في هذا الصباح كان صوته مبحوحاً وأجشّاً تنتابه الحشرجة حيث تكاد الغصة أن تخنق صوته خلف حنجرة حلقه.

موكب السجانين والضباط الذين سيقومون بالإحصاء يتحرك باتجاه الغرف حيث بدأ السجناء بالاستعداد، فاتخذت الاحتياطات اللازمة من قبل السجناء في الغرف التي حصل فيها الهروب، ووقف الشخص المكلف بالتغطية والتمويه مستعداً في مكانه.. الجميع وقف واجماً وكأن على رؤوسهم الطير.. فتسارعت دقات القلوب وتزاحمت في مكانها ودعاءاً خفيفاً صامتاً أخذ يتردد من قبل البعض لترتفع معه الأكف فوق الأفئدة.. وشرطة الاحصاء يتقدمون في طريقهم.. والاختبار الثاني يقترب أكثر فأكثر ليزداد معه انحباس الأنفاس، وما أن وصل الشرطي الأول باب الغرفة وألقى نظرة سريعة على الواقفين أمامه في الغرفة حتى قرع باب الحمام دون شعور الشرطي بمن هو القارع، فتبعه في الاحصاء الشرطي الثاني المدقق ليحصل معه نفس الشيء، وسار كل شيء على ما يرام، فلم يظهر ما يثير الشكوك.

لاحت تباشير الفرحة على وجوه جميعهم وهنئوا بعضهم البعض مرة أخرى حيث هدأت أعصاب الجميع بعد أن زال التوتر الذي ظل مسيطراً عليهم بانتظار ما سيحدث. فالخطة اجتازت الآن امتحانها الثاني دون عوائق لتسير المهمة بأمان.

بدأ جميع المعتقلين في السجن كعادتهم مع كل صباح جديد بالاستعداد للنزول إلى الساحة للنزهة اليومية تحت أشعة الشمس الدافئة، ومع

خروجهم إلى الساحة أخذت أولى الاخبار عن هروب مسعود وكمال وشوقي تتسرب بين بعض السجناء الذين لم يكن عندهم علم بهذا الحدث الكبير. تساؤلات وأحاديث بدأت تسمع هنا وهناك في أرجاء الباحة الصغيرة والأوضاع أصبحت غير طبيعية في الساحة.. سجناء يتهامسون وآخرون صامتون، وبعضهم يلتفت يميناً ويساراً إستغراباً لما يشاهدونه أمام أعينهم دون أن يعرفوا السبب، حيث الابتسامات تظهر على وجوه البعض من أصدقائهم. وفي خضم هذا الموضوع همس ماهر في أذن موسى قائلاً:

– والله يا موسى إنهم نفدوا وكسبوها، وكمال الآن ترك ساقيه للريح ولن يستطيع أحد إمساكه في حالة اكتشاف أمر هروبهم اليوم، واعتقد أنه ومسعود وشوقي قد قطعوا الحدود الآن إلى مصر.. وإلا إيش رأيك أنت في هذا الكلام يا موسى؟؟

– رأيي هو كرأيك يا ماهر، وكمال ابن عمي هذا عنيد وصلب وأنا أعرفه جيداً، حتى إنه من أول يوم حضر فيه إلى السجن وهو يفكر في عملية هروب، وها هو اللي في رأسه نفذه وحققه.. وشوقي أيضاً مغامر وهو يريد أن يهرب علشان يصفي بعض العملاء الذين لم يستطع إغتيالهم.

– يا ريتني يا موسى وافقت على الهروب معه، فقد سبق وأن طرح عليَّ

فكرته هذه، لأنه يوجد بيننا كما تعلم ثقة متبادلة، ولكنني رفضت ذلك لأنني لم أتصور أن ذلك يمكن أن ينجح، واعتبرت الفكرة من أساسها خيالية وأنا قلت في عقلي أنها بمثابة خرمة من خرمات كمال.

– ولكن أنت مش عارف بأن كمال دائماً يفكر وما فيش حاجة اسمها مستحيل عنده، فهو دائماً كان سارح في تفكيره ويبحث عن ثغرة يستغلها للخروج والنفاذ منها؟

– ما قدرت الأمور حق قدرها ولم أفهمه جيداً.. لقد فاتت فرصة لن تعود وكمال ومسعود وشوقي سيصبحون أبطالاً سيخلدهم التاريخ في ثنايا صفحات كتبه وسجلاته وسيحلف جميع المناضلين المعتقلين في السجون بشرفهم، كما سيذكرونهم في جميع المناسبات، ويمكن أيضاً منظمة التحرير تصدر طابع خاص بعمليتهم هذه؟؟

– بسيطة يا ماهر وخيرها في غيرها والسجن عمره ما انغلق على أحد وربك كريم يا رجل.

– لا بسيطة ولا شيء آخر يا زلمه وفرصة العمر راحت مني، وما تنساش بأن أصحابي في القضية خرجوا جميعاً من السجن ضمن

صفقة عملية تبادل الأسرى مع العدو الصهيوني، وأنا الوحيد منهم اللي بقى في السجن وذلك مثلي مثل مسعود أيضاً.

لم يكن مثل هذا الهمس والحديث بين هؤلاء فقط بل كان هناك في زاوية

أخرى من الباحة تهامس بين أصدقاء آخرين لهم، فكان هناك همس وعتاب بين هزاع وهشام حيث قال هشام ضاحكاً وهو يهمس في أذن هزاع:

– والله عفارم عليك يا مسعود عملتها وقويت قلبك مخاطراً بحياتك.

– صحتين على قلبه يا عمي، بيحق له مسعود وخلينا إحنا هان، المهم أن يفكروا في أوضاعنا، وخلينا نظل نعاني، فالواحد منا أصبح عنده خمسون مرضاً ووجعاً.

– ولكن يا هزاع أنت ما كنتش موافق على هروبهم ولو سمعوا منك وردوا على رأيك لخسروا ذلك ولما خرجوا من السجن لأن هروبهم اعتمد على استغلالهم لوجود القسم الجديد – الذي لم ينته البناء فيه بعد – وما سيوفره لهم من تغطية وحماية لانسلالهم تحت جنح الظلام؟؟

– صحيح يا هشام أنني لم أوافق على ذلك عند طرح الموضوع علينا في التنظيم لأخذ رأينا ومشورتنا، وما تنساش أيضاً بأنني اعترضت من قبل على أي فكرة وخطة للهروب وذلك عندما كنتم تفكرون أنت وسليم

في الهروب، لكن والله يا هشام إن اعتراضي على هروبهم كان يهدف إلى مصلحة السجن، لأنني توقعت عدة احتمالات أخطرها ما سيهدد حياتهم في حالة انكشاف أمر هروبهم عند محاولتهم التسلل من بين الأسلاك فلو صادف أن لاحظهم حراس أبراج المراقبة فإنهم سيطلقون عليهم رصاص بنادقهم فوراً، وذلك حسب التعليمات المزودين بها والخاصة بمجال عملهم، وعند ذلك سيستشهدون حتماً ومن ثم ستفشل المحاولة. والاحتمال الثاني هو ما ستقدم عليه إدارة السجن ومديرية السجون بحقنا جميعا داخل السجن كانتقام منها ضدنا على هروبهم، وإمكانية لجوئها أيضاً إلى تقديم كل الأخوة في الغرف التي سيخرجون منها للمحاكمة، فهي بدون شك ستعرف بأننا قدمنا لهم المساعدة في الغرف للتغطية على هروبهم حتى لا يتم اكتشافهم بسهولة. أما الاحتمال الثالث فهو أننا سنخسر الكثير من الانجازات التي بحوزتنا والتي استطعنا تحقيقها وانتزاعها بنضالاتنا العديدة والتي خضناها بمعاناتنا وآلام أمعائنا الخاوية، حيث ستقدم إدارة المعتقل حسب تصوري على سحب كل ما بحوزتنا من انجازات. وهذا هو سبب رفضي يا هشام، وأمل أن تكون قد تفهمت إذاً سبب اعتراضي.

– ولكن يا هزاع هو باقي لدينا شيء حتى نخسره.. فكما تعرف أن النازي الصهيوني " دافيد ميمون " مدير مصلحة السجون قد صعب وعقد حياتنا وسلب منا كل حقوقنا وما كان بحوزتنا من إنجازات.

هذا من ناحية الخوف على فقدان الانجازات، أما من ناحية خوفك من قيام إدارة السجن بتقديم الاخوة في الغرف التي سيخرجوا منها للمحاكمة فهذا احتمال قد تم أخذه بالحسبان.. ومن هنا تم تكليف أخ من كل غرفة من الغرف الثلاثة للإعتراف بأنه هو الذي دق على باب الحمام لإشعارهم بوجود شخص داخله، وذلك فيما لو عرفت إدارة السجن بذلك، إضافة إلى أننا حددنا ساعة الصفر للتوقف عن الدق على باب الحمام عند حضور عدد الظهيرة، وذلك لكي تشعر إدارة السجن بأن الهروب قد تم في ساعات الصباح أي بعد أخذ العدد من قبلهم، وذلك حتى لا نعطي مجالاً للإدارة للقيام بتقديم أحداً من الأخوة للمحاكمة وذلك كتحسب احتياطي.. وفي هذه الفترة نكون قد أعطينا مجالاً ومتسعاً من الوقت لكل من مسعود وكمال وشوقي للخروج من منطقة السجن والاختفاء خارجها.

وبينما هم يتعاتبون قطع عليهم أحد الاخوة السجناء حديثهم وهو مكفهر ومشدود تقاسيم الوجه، حيث يبدوا عليه الزعل والغضب، وقبل أن يطرح عليهم السلام قال مُستفزاً:

– إيش اللي حصل يا هزاع إنت وهشام، ليش ما أخبرتونا عن ذلك من قبل؟؟

– بسيطة يا أبا الرائد وإحنا والله العظيم مش ناسينك، فأنت في الحسبان بس كل شيء في وقته وأوانه.

قال هشام ذلك بينما أخفى ضحكة علت شدقيه. وهنا انفعل أبو الرائد وبصوت متهدج قال:

– بس يا بركة تبريركم هذا مش صحيح وهو بمثابة رفع عتب، والله يلعن أبوها من حبسه زي الكندرة، فالواحد منا عاف نفسه وما بقاش عنده طول روح.

– هديء بس أعصابك شوية يا أبا الرائد يا بركة.

قال هزاع ذلك مقاطعاً في محاولة منه لتلطيف الجو الذي توتر بفعل حدة حديث أبو "الرائد".

– إيش معنى أهديء أعصابي يا زلمة، أنتم ما فيش عندكم إحساس ومشاعر حتى تقدروا من خلالها أوضاع الواحد، فهل يوجد من هو أحق مني بالهروب؟؟

– لا والله يا أبا الرائد وإحنا حاسبين حسابك، ولكن إللي هربوا هم أصحاب الخطة، وهم الذين وفروا كل الإمكانيات اللازمة لعملية الهروب، ولننتظر الآن ماذا سيحصل معهم.

أبو الرائد اسمه الشخصي "رياض" ويكنيه أصدقاؤه "بأبي الرائد" وهو سجين قديم أمضى عليه في السجن حتى لحظة الهروب أربعة عشر عاماً، وهو أحد ثلاثة إخوة جميعهم كان قد حكم عليهم بالسجن المؤبد من قبل محكمة صهيونية، ولم يبق في السجن من بين إخوته إلا هو، حيث تحفظت أجهزة الأمن الصهيونية على تحريره من السجن إثناء صفقة تبادل الأسرى التي جرت مع حكومة الكيان الصهيوني في سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف، وذلك بسبب خطورة أعماله العسكرية.

لم يمكث أبو الرائد عندهم كثيراً من الوقت، فغادر مكانهم دون أن يبدوا عليه الارتياح، حيث أكمل هزاع عندئذ دردشته مع هشام والتي كان أبو الرائد قد قطعها عليهم.

– طيب يا هشام إنسى ذلك وخلينا الآن نتصور أين هم.. فهل تتوقع بأن كل من مسعود وكمال وشوقي هم الآن خارج منطقة السجن؟؟

– بالتأكيد.. وكل اعتقادي أنهم الآن إجتازوا الحدود باتجاه صحراء سيناء وذلك إذا لم يكونوا قد واجهوا متاعب ومصاعب في الطريق قد تجعلهم يغيرون سير توجهم.. ويمكن أن يكونوا قد ركبوا إحدى السيارات إلى مدينة بئر السبع، أو أنهم وجدوا مخبئاً واختبئوا فيه.

– وماذا تتوقع يا هشام من الإدارة في حالة اكتشاف أمر عملية الهروب.. وهل تتصور أن تتكشف اليوم؟؟

– حول موضوع اكتشاف أمرهم فكل الاحتمالات واردة، وإن شاء الله الأمور بتتسهل أمامهم. أما حول توقعي بما ستقدم عليه إدارة السجن ضدنا فإن أسوأ الاحتمالات في نظري هو قيامها بإجراء عملية تفتيش انتقامية تقلب فيها كل شيء داخل الغرف بشكل استفزازي. والآن يا هزاع علينا أن ننتظر ما سيحدث خلال الساعات القادمة لنطمئن أكثر مع ضرورة الاتصال بقيادة الحركة في أقرب فرصة لمعرفة آخر أخبارهم وأين هم.

وقبل أن يفترقا بعد انتهاء دردشتهم اقترب منهما صديقهما كشكو وهمس في أذن هزاع قائلاً:

– معليش لو ضايقك كلامي، بس اللي في دماغي بأحب أحكيه، وأنا يا هزاع بأبلغك أنت وهشام بأنني أعتبر دوري الآن فيما يتعلق بالعملية انتهى ومش حأتحمل أي مسؤولية، فلو حضرت الإدارة وطلبت معرفة أسم الشخص اللي كان يدق على الباب، وذلك فيما لو إنكشف أمر الهروب اليوم، مش حأقول لهم أنا اللي دقيت.

– مش معقول هالكلام اللي أنت بتحكيه يا كشكو.. إيش اللي جرالك فأنت بتراجعك بتخرب علينا كثير وبتظلم الاخوة اللي في غرفتك، فالكل أركن عليك، والله يعينا عليك يا عبد الحميد، فإحنا أيش اللي ورطنا معك، ومين اللي خلانا نختارك لتتحمل المسؤولية؟؟

– أنت حر في رأيك، وأنا بلغتكم بقراري هذا.

– يا كشكو يا بركه.. الله يوفقك خلي الأمور تمشي علي خير؟؟

– بس هذه مسألة تخصني لوحدي وقراري هذا لا رجعة فيه.

– والله إنك يا عبد الحميد بدك تخلي الواحد يفقد أعصابه ويطرطق مُخه.

وعند هذا الحد من الكلام قهقه عبد الحميد قائلاً:

– لا تأخذ كلامي يا هزاع على محمل الجد فأنا أمزح معك وغير جاد في تهديدي وفقط حبيت أوتر أعصابك.

وهنا رانت لحظة صمت سريعة على المكان ثم انفجر الجميع ضاحكاً ضحكة لا شعورية سيطرت عليهم حيث افترقوا من مكانهم بعد ذلك.

أخبار الهروب أخذت تتسرب رويداً رويداً إلى مسامع الكثير من السجناء من خارج الغرف التي خرج منها الثلاثة، وفي نفس الوقت أخذ بعض حراس السجن يجوبون ساحة النزهة كعادتهم أثناء تواجد المعتقلين في الساحة، إلا أنهم لا زالوا بعيدين كل البعد عن معرفة وتفسير ما يحدث أمامهم من همس وفرحة على الوجوه. كما أن إدارة السجن لازالت لم تعرف بما حدث، فهي لم تستطع الحصول على أية معلومات عن هذا الهروب حيث المراقبة الأمنية من قبل السجناء كانت دقيقة.

ومع كل ما كان يحدث ويجري في الساحة أمام أعين الجميع، أخذ زمن النزهة يقترب من الانتهاء، ومع انتهائها بدأ جميع المعتقلين المتواجدين في الساحة بالعودة إلى الغرف وهم في وضع ترقب وانتظار...

(9)

لم يكن في محطة الأتوبيس أي مسافر عندما وصلوا إليها، وما أن حطت أقدامهم عتبة المحطة حتى كان التعب قد أنهك قواهم من مشاق السير الطويل في طرق وعرة.. فجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث وهم يجولون ببصرهم هنا وهناك في الفضاء الفسيح الملتف حولهم تلمساً لما حولهم وحذراً لما قد يحدث في أي لحظة.

تفقد كمال نفسه جيداً وتحسس جيبه بيده، فقد كانت ترقد في جيبه ورقة نقدية من فئة خمسين دولاراً أمريكياً، فسأل أصدقاءه مخاطباً إياهم قائلاً:

– كيف سندفع أجرة السفر للسائق.. فنحن لا نملك أي أغورة من العملة الاسرائيلية؟؟

– ربك بيفرج يا كمال.

لم يقل مسعود في رده أكثر من ذلك. أما شوقي فكان لا زال غارقاً في تفكيره، فهو يبحث عن حل ولكنه غير متسرع في إعطاء مشورته.

في هذه اللحظات وبينما هم يناقشون أمر الفلوس أخذ عدد قليل من سكان المنطقة يتوافدون باتجاه المحطة.. وعلى غير بعيد منهم لمحوا

شاباً بدوياً يدب بخطا أقدامه في الأرض دباً ومتحركاً باتجاههم، حاملاً معه زوادة طعام خلف كتفه الأيمن، وعلى ما يبدوا أنه كان ينوي السفر إلى مكان عمله، فاستبشروا خيراً بوفادته عسى أن يكون بها الحل لأمر الفلوس، فأشار كمال بيده باتجاه هذا الشاب البدوي قائلاً لأصدقائه:

– ما رأيكم أن نسأل هذا البدوي لنرى إن هو يوافق على استبدال هذه الدولارات بعملة إسرائيلية؟؟

– جيد يا كمال وعلى بركة الله وبإيش ما قال موافقين وإلا إيش رأيك في هالكلام يا شوقي؟؟

– حسناً يا مسعود.. وليذهب كمال إليه حالاً ليسأله حول ذلك لمعرفة جوابه.

وما أن وصل الشاب البدوي إلى المحطة حتى اقترب كمال منه رافعاً يده بالتحية..

– السلام عليكم يا أخانا العربي.

– عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

– هل لك أن تخبرني إلى أين يذهب الأتوبيس من هذه المحطة؟؟

– نعم.. مباشرة إلى مدينة بئر السبع وهي أخر محطة لوقوفه.

– عفواً.. ولكن متى سيحضر؟؟

– يعني بعد لحظات إن شاء الله، فهو يتحرك في أوقات محدودة، ومحددة أيضاً، وفي اليوم الواحد حوالي ست مرات في ساعات الصباح ووقت الظهر وفي المساء.

وبعد أن أنهى إجابته استطرد بدوره متسائلاً:

– وهل أنت أول مرة تحضر إلى هذه المنطقة؟؟

– نعم إنها أول مرة تطأ قدماي هذه الأرض، فأنا أعمل مقاول بناء وقد تعطلت سيارتي التي كنت أستقلها أنا وأصدقائي الجالسين أمامك، ونحن الآن ننوي السفر إلى مدينة بئر السبع لجلب سيارة قاطرة لجر سيارتنا التي تركناها ليس بعيداً عن هذا المكان، ولكن المشكلة التي تواجهنا الآن هي أننا لا نملك نقوداً إسرائيلية وليس بحوزتنا سوى خمسين دولار أمريكياً ونريد استبدالها بشيكلات لدفع أجرة الأتوبيس فهل لك أن تستبدل لنا هذا المبلغ؟؟

– نعم.. ولكن ما يوجد بحوزتي الآن هو كمية قليلة من النقود.. ولا أعرف كم هو سعر الدولار وماذا يساوي؟؟

– بإمكانك إعطائي مبلغاً من المال ولا يهم كم يساوي.

– إذاً خذ لك هذه الخمسين شيكلاً وأعطيني الخمسين دولاراً التي بحوزتك.

.. وبعد أن استلم كمال الخمسين شيكلاً اتجه ليجلس بجانب أصدقاءه وهو سعيد بهذه المصادفة، حيث عمت السعادة في نفس كلٍ من مسعود وشوقي أيضاً.

تأهبوا للحظة قدوم الأوتوبيس وحاول كمال إسداء النصائح لهم طالباً منهم بألا يتحدثوا مع أي شخص في الأوتوبيس طوال فترة الركوب لئلا تثار الشكوك والشبهات حولهم، خاصة وأنهم يتواجدون في منطقة مقفرة تخلوا من العرب إلا ما قل من بعض مضارب البدو المتفرقة ورعاتهم الذين يجوبون بقطعانهم بحثاً عن الكلأ والمرعى.

صفير زامور الأتوبيس بدا يدَّوي وسط الصحراء مخترقاً الفضاء ومقترباً من المحطة فاستعد عند ذلك جميع المنتظرين للصعود، حيث ما أن توقف حتى توافدوا صاعدين إليه، ليمخر الأتوبيس عند ذلك عباب الصحراء ناهباً الطريق نهباً وطاوياً الجبال والوديان خلفه طياً. كان الأتوبيس يحمل في داخله عدداً قليلاً من الركاب الذين ما إن رأووهم يعتلون إلى داخله حتى رمقوهم بنظرات غريبة.. فملابسهم كانت رثة وملامحهم تدل على أنهم من العمال العرب، ومن بين من رمقهم بنظراته امرأة عجوز مسنة أطالت النظر إليهم وكأنها تريد أن تقول لنفسها أن أمر هؤلاء الثلاثة يدعو للريبة والتساؤل، فهي كثيراً ما تستقل هذا الأتوبيس دون رؤية أي عامل عربي في هذا المكان.

وفي الطريق توقف الأتوبيس أمام بعض المحطات المبعثرة والمنتشرة على جانبي الطريق، فصعد من إحداها عدد من الأطفال البدو لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، وعلى ما يبدو أنهم كانوا في طريقهم إلى مدارسهم البعيدة عن مضارب ذويهم حيث كانوا يحملون على أكتافهم حقائبهم المدرسية ويرتدون الزي المدرسي، وحط هؤلاء الأطفال عند جلوسهم بالقرب من مقاعد كل من مسعود وكمال وشوقي التي امتطوها في مؤخرة الأتوبيس وبجلوسهم إلى جوارهم تلطف مسعود مستلطفاً هؤلاء الأطفال الصغار، فأخذ يحدثهم ويسألهم ويقص عليهم بعض القصص التاريخية عن فلسطين وهم يستمعون إليه بتشوق ناسياً النصيحة التي تلقاها من صديقه كمال الذي لم يستطب له ذلك، فما كان منه إلا أن ذّكر مسعود بالوصية ليتوقف عن الحديث وسرد القصص، حيث اكتفوا طوال فترة ركوبهم الأتوبيس بالتهامس فيما بينهم، ولم يحاولوا فتح أحاديث جانبية تحاشياً لأية شبهات قد تحوم حولهم من قبل سائق الأتوبيس أو بعض الركاب.. فتقاطيع وجوههم لا زالت مشدودة وجباههم ندية بالرغم من محاولات التكلف التي أبدوها للتخفيف من توتر أعصابهم الناتج عن قلقهم وترقبهم، حيث تغيرت وجهة سيرهم الأولى بعدما فشلوا في الوصول إلى الحدود المصرية، فأثر هذا الفشل في سلوكهم.

الساعة الآن تقترب من السابعة صباحاً والسائق ينظر إلى ساعته ليبدأ في إدارة مفتاح المذياع محركاً إياه بإتجاه محطة إرسال إسرائيل التي تبث برامجها باللغة العبرية.

المذيع يقرأ نشرة الأخبار وجميع الركاب صاغين إليها حيث أعصاب الثلاثة أخذت تزداد توتراً في إنتظار ما سيسمعوه عن أنفسهم. وبسرعة تبدد الخوف والقلق عنهم بعد إنتهاء المذيع من قراءة موجز الأنباء. فتبادلوا النظرات فيما بينهم ليبدوا الارتياح على وجوههم. فهذا يسهل عليهم الوصول إلى مدينة بئر السبع باطمئنان، حيث ما أن أصبحت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً حتى وصل بهم الأتوبيس إلى محطة سفره النهائية في مدينة بئر السبع، وبعد أن استعدوا للنزول انطلقوا في شوارع المدينة باتجاه الغرب.

المنطقة التي نزلوا بها ليست غريبة عن بعضهم، فكمال قبل اعتقاله عمل كثيراً في هذه المنطقة ولديه الكثير من الأصدقاء والمعارف فيها سواء من اليهود أم العرب، وهذا ما يمكن أن يساعده ويسهل طريق وصولهم إلى مدينة غزة.

وفي أثناء سيرهم في شوارع المدينة تحدثوا مع بعضهم لتحديد وجهة سيرهم الجديدة، حيث لم يكونوا قد حددوها أو اتفقوا عليها من قبل، فقال كمال مخاطباً إياهم:

– ما رأيكم بأن نتوجه نحو ذاك الحانوت – وأشار بيده تجاهه – لنشتري شيئاً من الطعام والشراب، فالجوع كما تعرفون ينهش أمعاءنا ولابد من أسكاته؟؟

– حسنا ما تقوله يا كمال...

قال شوقي وأضاف معلقاً:

.. ولكن ما لدينا من الفلوس لا يكفي لشراء طعاماً لنا جميعاً، ولا تنسوا أننا بحاجة لتوفير أجرة للطريق، فنحن لازلنا لم نصل إلى مدينة غزة ونريد أخذ سيارة للوصول بأسرع ما يمكن، وعلينا البحث عن سيارة من الآن ومن الأفضل أن تكون السيارة من سيارات غزة العاملة في هذه المنطقة.

– لا يهم موضوع الفلوس، فبإمكاننا أن نتدبر موضوع الأجرة اللازمة للسائق عند وصولنا إلى غزة...

وأضاف مسعود قائلاً:

– ولكن بالإمكان أن نشتري طعاماً لواحد منا ونقتسمه بيننا.

– إذاً هيا بنا نذهب إلى هذا الحانوت.

قال كمال ذلك.. وأشار مرة أخرى بسبابته إلى الحانوت.

– حسناً يا كمال...

رد مسعود بذلك ثم أكمل حديثه قائلاً:

– إلا أنني لا أرى ضرورة لذهابنا نحن الثلاثة إلى الحانوت، فمن الأفضل أن يذهب أحدنا لشراء الطعام بينما يبقى الآخرون في الانتظار.

– لا يا مسعود يجب أن يكون مصيرنا واحد، فإذا حدث واكتشفنا – لا سمح الله – فعلينا أن نُعتقل جميعاً ولتكن حينها مشيئة الله.

– فما رأيك يا شوقي إذاً في ذلك.

– لا بأس وعلينا الاسراع في شراء الطعام والخروج من هذه المنطقة.

تحرك ثلاثتهم باتجاه الحانوت وبينما هم سائرون في طريقهم نحوه، صادفهم شاب يركب دراجة هوائية، ويبدو من ملامحه بأنه يهودي، حيث أخذ الشاب يسخر من ملابس كمال ويتهكم عليه بألفاظ عبرية بذيئة وسيئة وذلك نظراً لأنه كان يرتدي سروالاً رياضياً " ترنق " مبلي من كثرة الاستخدام، فأثارت سخريته وألفاظه غضب وعصبية كمال الذي سيطر عليه في هذه اللحظة الضيق والغليان النفسي، حتى أنه من شدة الضيق والغضب نسي نفسه بأنه هارب من السجن، وحاول أن يهجم على الشاب اليهودي ليشبعه ضرباً ولكماً لحقارة مسلكه ونابية ألفاظه.. كما أن شوقي هو الآخر استفز من ألفاظ هذا اليهودي وحاول بدوره الهجوم عليه لضربه، إلا أن تدخل مسعود حال دون ذلك فقد تدارك مسعود الموقف وذكرهما هامساً:

– لا يا كمال أنت وشوقي لا تفعلوا ذلك.. اتركوه وشأنه، فأي إعتداء عليه من قبلنا سيؤدي بنا إلى السجن حتماً، وحين ذلك سينكشف أمرنا، فنحن كما تعلمون ليس بحوزتنا بطاقات هوية وهذا ما سيدفع الشرطة للقيام بوضعنا على ذمة التحقيق لساعات طويلة وربما لأيام، ويمكن في هذا الوقت أن ينكشف أمر هروبنا داخل السجن، وعند ذلك نكون قد خسرنا كل شيء. فأمل إذاً أن تكونوا قد تفهمتم الموضوع وتحكمتم بأعصابكم.

اقتنع كمال وشوقي بكلام مسعود، فاكتفوا ببعض كلمات التوبيخ والتجريح التي وجهوها له، وأكملوا سيرهم باتجاه الحانوت فدخلوه لتفقد ما أرادوا شراءه، حيث استقبلتهم صاحبة الحانوت وهي إمرأة شمطاء رومانية الملامح، فأنفها طويل ومستقيم، ضخمة الجثة، متوسطة القامة، وينطبع على وجهها علامات الجدية والصرامة، حيث يبدوا أنها إندعكت بتجارب الحياة.. وبعد اختيارهم لطعامهم أرادوا دفع ثمن ما استلموه من طعام، وبينما هم يقومون بذلك كانت تلك العجوز ترمقهم بنظرات فاحصة اختلستها اختلاساً، فقد تحسبت أن يكونوا لصوصاً أرادوا سرقتها.

لم يطل انتظارهم في الحانوت كثيراً من الوقت فخرجوا سوياً إلى الشارع وساروا في طريقهم حيث لم يطيلوا في سيرهم، فهم ما أن قطعوا عدة

أمتار حتى مرت مصادفة من جوارهم سيارة "بيجو" انطبع عليها شارة نمرة عربية، فأوقفوا سائقها وسألوه إن كان ذاهباً إلى غزة ليأخذهم معه في سيارته؟؟ فهز السائق لهم رأسه بالإيجاب وطلب منهم الصعود. لم يسألوه عن الاجرة المطلوبة منهم، فهم لن يختلفوا معه حول ذلك وعليهم الوصول إلى مدينة غزة بأي ثمن ممكن حتى يشعروا بأنهم أصبحوا يتواجدون في مكان أكثر أمناً.

وفي الطريق وبينما السيارة تطوي بهم الأرض في طريقها باتجاه مدينة غزة، أخذ السائق يتحدث وإياهم كعادته مع ركابه لتسلية نفسه طوال الطريق. ولم يكن بينهم موضوع واحد ليتحدثوا حوله فأخذوا يتناولون في دردشتهم مواضيع مختلفة.. فسألوه عن أوضاعه المعيشية ومعاناة الناس وضيق أحوالهم، وتطرقوا إلى حجم الضرائب الكثيرة التي تثقل كاهل الناس، وقلة العمل والمخالفات الكثيرة التي تفرضها شرطة المرور ضد السائقين متعبةً إياهم تحت حجة سرعتهم الزائدة وضرورة الحفاظ على سلامة السكان وعابري الطرقات من المشاة كما يدعون..؟!

– وزي ما أنتم شايفين.. قال السائق: يالله يالله بالكاد ويا دوب الدخل والمعاش يكفي لطعام ولباس العيال، والحياة كلها تعب وشقاء.. فأنا أستيقظ من ساعات الصباح الباكر للذهاب للعمل، ولا أعود للبيت قبل غياب الشمس، وكل هذا دون شيء "أي على إشي فاضي زي ما

بيقولوا" فالدخل قليل والناس يمكن تقول عني بأني غنيت من وراء هالشغلة. ولكن هذا غير صحيح.

وهنا نظر ثلاثتهم إليه نظرة ملؤها التأثر، ثم قطع شوقي الصمت الذي خيم عليهم على أثر ذلك وقال:

– معلش يا حاج.. بسيطة وربك بهونها، فكل شعبنا اليوم يعاني مثلك، وكل الشعوب حصلت على حقوقها إلا نحن، فما زالت أرضنا مغتصبة

تحت سيطرة الاحتلال وبمباركة امريكيا.

وبينما هم يتبادلون الحديث قاطعهم مسعود قائلاً:

– لكن أخبرني يا حاج أنت زمان في هالشغلة؟؟

– والله يعني حوالي عشر سنوات وقد كنت في البداية أشتغل بالأجرة اليومية على سيارة لأحد الأشخاص، وحينها بالكاد كنت أستطيع تدبير أمري إلى أن ربك يسرها في طريقنا فأرسل لنا أبن حلال كريم يقرضنا شوية فلوس حطينا فوقهم ذهبات المرأة واشترينا هذه السيارة إللى إنت شايفها الآن. فربك ما بينسى أحد من عبيده.. وحالياُ أقوم بنقل عمال للعمل في الزراعة وتلقيط الخضرة واشتغل أيضاً مثل بقية العمال، ولما بننتهي من الشغل بأرجعهم بالسيارة، واليوم كان عندي طلب خاص وخرجت لهذا الغرض.

– طيب قولي.. قديش بتسوى السيارة هالأيام؟؟

– والله حسب النوع والجودة.. والسيارة هذه اللي بين أيدي اشتريتها بألفين دينار أردني وهي من نوع "بيجو 404" وطبعاً السيارة اشتريتها مستخدمة، فأنا مش من مقدرتي أشتري سيارة كسر صندوق.

وهنا تدخل كمال في الحديث وقال:

– طيب قولي يا حاج.. كيف أولاد عمنا شرطة اليهود معك؟؟

– والله يا فلان.. على فكرة.. أبو إيش بيقولوا لك؟؟

– زي ما تسمي ولكن اسمي أبو عاصف وساكن معسكر جباليا، وأصدقائي هؤلاء واحد من غزة وأسمه "أبو الصاعد" والثاني "أبو أدهم" وهو من خانيونس، منطقة بني سيلا. وإحنا الثلاثة بنعمل مع بعض في البناء، واليوم المعلم ما أجاش يأخذنا بسيارته للعمل فقررنا العودة للبيت.

أكمل السائق حديثه بينما كان كل من مسعود وشوقي يستمعون إليه.

– وكم ولد عندك يا أبا عاصف؟؟

– ثلاثة أولاد وبنت وأكبرهم البنت وعمرها سبع سنوات.

– الله يخليلك إياهم ويحفظك إلهم.

ونعود لسؤالك يا أبا عاصف.. فزي ما أنت شايف البوليس دائماً ملاحقنا ومنكد علينا عيشتنا، وكل يوم والثاني ينصب إلنا حواجز

على الطريق للتفتيش على الرخص والزيادة في الركاب. ومش على قدر هيك بس، فإذا صادف وأن أوقفنا في الصباح فإنه كثيراً ما يؤخرنا عن الوصول للعمل، وهذا ما يؤدي إلى تذمر الركاب والعمال وحصول مشاكل مع صاحب الشغل، ولكن شر البلية اللي بيزيد الطين بلة يا أبا عاصف هو وجود حاجز ثابت للجيش في الطريق عند نقطة الحدود الفاصلة بين غزة وباقي الأراضي المحتلة منذ عام ثمان وأربعين وتسعماية وألف، وهذا الحاجز تتوقف عنده جميع السيارات يومياً بغرض التفتيش والفحص والتدقيق في الهويات، وخاصة للسيارات القادمة من مدينة غزة إلى الداخل، وغالباً ما يصادف وجود حاجز متنقل للجيش والشرطة يتم نصبه بشكل مفاجئ في الطريق.

عندئذٍ تنبه كمال لما سمعه عن الحواجز المتنقلة، وهذا ما كان يريد معرفته من خلال سؤاله، فأخذ يفكر في هذا الموضوع.. فالطريق لا زالت محفوفة بالمخاطر والمحاذير وهي غير أمنة وهم ليس بحوزتهم بطاقات شخصية لتسهل لهم طريق عبورهم واجتيازهم لهذا الحاجز في حال إيقافهم عنده من قبل الجيش. فكر.. وفكر وإذا به يستدير بوجهه نحو شوقي ومسعود حيث لاحظ القلق والهموم على وجوههم بالرغم من محاولاتهم لطرد هذا القلق الذي سيطر عليهم لحظة سماعهم حواجز

الجيش المنصوبة على الطريق. كما أن أمر هروبهم يمكن أن يكون قد انكشف، فآخر نشرة أخبار استمعوا إليها كانت قبل ساعة من الوقت.

دارت الهموم والأفكار في رأس مسعود فاشتعل حركةً ودوّياً كطنين خلية نحل أثناء سعيها للعمل.. فأخذ يتساءل بينه وبين نفسه صامتاً:

– يا عالم مين يدري بأننا سنصل إلى غزة.. وهل معقول يا مسعود أنك سترى أصحابك وأهلك.. ومعقول يا مسعود أنك أنت وشوقي وكمال حتشوفوا لكم يوم زي الناس.. ومين منا اعتقد بأننا سنتمكن من الهروب والوصول إلى هذا المكان اللي إحنا فيه حالياً.. وماذا ستكتب الصحف عنا وعن عملية هروبنا؟؟

في الوقت الذي كان فيه مسعود يخاطب نفسه متسائلاً، كان شوقي قد سرح في خياله بعيداً مفكراً في البيت والعيال ومتصوراً شكل اللقاء بينه وبين أهله:

– شوقي.. مش معقول تكون أنت.. إيش إللي جابك في هالليل يا ولدي.. وكيف طلعت من السجن.. فهل حصلت عملية تبادل ثانية للأسرى وأفرجوا عنك يا ولدي يا عزيزي.. يا ما أنت كريم يا رب...؟؟

وها هي والدته تحتضنه بحرارة وشوق ملؤهما الحنو والعطف، والدموع ترفرف من مقلتيها من تأثير المشهد.. وأولاده وزوجته يتراكضون نحو

والدهم ليحتضنهم بحرارة.. ووالدته تحاول الزغردة فترفع من صوتها فيرجوها قائلاً:

– لا يا والدتي.. أسكتي ما تزغرديش لأحسن يدري الناس ويسمعونا الجيران، فأنا هربت من السجن بصحبة أصدقائي وأريد أن أخرج من البيت بسرعة.

– لا.. لا تخرج يا ولدي أريد أن أعمل لك كأسة شاي حالاً.. وأين أصدقاؤك.. أدعهم يدخلوا إذا كانوا ينتظرون خارج البيت.

– كلا إنهم لا ينتظرون يا والدتي.

والأولاد يقتربون من جدتهم وأبيهم وولده الصغير يسأله بصوت عذب قائلاً:

– هل جيبت لي معك ملبس يا بابا؟

وفجأة وقبل أن يرد على ولده الصغير شعر أن يداً خفيفة تربت على كتفه لتوقظه من سرحانه وشطحات أماله وتمنياته.. فالسيارة أخذت تخفف من سرعتها بعد أن اقتربت من حاجز مفاجئ للجيش، ومع هذا الاقتراب بدأت أعصابهم بالتوتر والاضطراب مرة أخرى، كما أخذت دقات قلوبهم في الازدياد كلما اقتربوا من هذا الحاجز. السيارة تتوقف على إشارة من أحد الجنود الواقفين بالقرب من الحاجز، ليتقدم هذا الجندي بعد ذلك نحو السيارة حيث طلب فتح شنطتها الخلفية وكبودها

الأمامي.. فامتثل السائق للأمر وعمل على تلبية ذلك، وبعد أن انتهى من ذلك عاد ليقف إلى جوارهم بجانب السيارة حيث كان شوقي يستعد لإبراز بطاقة هويته الشخصية، فضرب يده على جيبه ثم إستدار نحو السيارة، فقد أراد بهذه الحركة إشعار الجندي بأنه نسى الهوية بين حوائجه وأغراضه داخل السيارة وهو يريد العودة لجلبها. وبينما راح يهم بنفسه موهماً الجندي بأنه ينوي إحضارها، نظر الجندي عند ذلك إلى الخلف باتجاه طابور السيارات الذي بدا يزداد في اصطفافه على طول الطريق.. فاكتفى بتفتيش السيارة طالباً من السائق التحرك ولتنطلق بهم السيارة سريعاً، بعد أن صعدوا إليها، والبهجة تغمر وجوههم.

كانت تلك لحظات عصيبة لعبت فيها الصدفة دوراً كبيراً في عدم كشفهم

ومن ثم عدم اعتقالهم.. فلو أن الجندي أصر على رؤية هوياتهم الشخصية لما خرجوا بسلام من ذلك المكان، كما أن أمر فرارهم من السجن كان قد انكشف بعد ساعة من الحادثة.

تمتموا ببعض الكلمات ابتهالاً وشكراً لله الخالق سبحانه وتعالى، حيث رفع اجتيازهم لهذا الحادث من درجة اطمئنانهم، فربما هم بعد الآن لن يواجههم سوى حاجز واحد ثابت لا يدقق بدوره على فحص وتفتيش السيارات القادمة باتجاه مدينة غزة، حيث هم أصبحوا الآن على بعد

بضع كيلو مترات من محطة التفتيش الأخيرة للجيش قبل الدخول إلى حدود مدينة غزة.

استمر الحديث بينهم والسائق إلى أن وصلت بهم السيارة إلى هذا الحاجز النهائي، حيث توقف السائق خلف بعض السيارات التي كانت تتحرك مبطئة، ولم يستمر هذا السير البطيء كثيراً، فقد أشار لهم أحد الجنود في هذا المكان بالعبور والاستمرار في السير. وعند ذلك حمدوا الله كثيراً فأنستهم الفرحة كل شيء. وفي خضم فرحتهم هذه مد كمال يده في جيبه ليخرج منها ما تبقى بحوزتهم من مبلغ الخمسون دولار التي كانوا قد استبدلوها من الشاب البدوي، فناولها للسائق شاكراً وموصياً إياه أن يحط بهم في منطقة الشجاعية، وهي أول المناطق التي ستواجههم داخل مدينة

غزة ومنها سيتدبروا طريق وجهتهم.

الساعة تشير إلى العاشرة والنصف والسائق يحط بهم في المكان الذي اختاروه. فنزلوا بكل طمأنينة وأمان متوجهين نحو أحد الأماكن التي اختارها مسعود ليرتاحوا داخله قليلاً من الوقت.

عقارب الساعة تتحرك وتتحرك لتقترب من الحادية عشر ظهراً، بينما هم لازالوا يجوبون الشوارع والأزقة مشياً على الأقدام للوصول إلى أحد البيوت، وقبل أن يصلوا بأمتار قليلة طلب مسعود من كمال وشوقي

انتظاره بعيداً عن البيت الذي سيذهب إليه ليرى إن كانت هناك إمكانية للمكوث داخله.

توقف مسعود أمام البيت وما أن دق عليه حتى خرج له أحد الأشخاص من مكان البيت ليحتضنه بحرارة وهو غير مصدق نفسه بأن الذي يقف أمامه هو صديقه مسعود.

– مش معقول.. مسعود.. إيش إللي جابك هان.. ومتى خرجت من السجن؟

– لا أريد أن أطيل عليك الحديث يا أبا علي فقد هربت أمس من السجن بصحبة صديقين لي وحتى الآن لم نجد مكاناً لنختفي فيه وأريد منك أن تساعدنا في تدبير الأمر وتسهيل إخفائنا، لأنك كما تعرف لي أربعة عشرة سنة في السجن واحتاج إلى مساعدة.

– إليك أفدي رقبتي يا مسعود.. وأين أصدقاؤك.. أدعوهم ليدخلوا، فالبيت بيتك؟؟

– كثر الله من خيرك يا أبا علي وجزاك الله خيراً.

جهز أبو علي البيت لاستقبالهم الاستقبال اللائق بهم، ففرش الفرشات والوسادات وقدم لهم الطعام والشراب حيث أكلوا وارتاحوا ثم طلبوا منه أن يحضر لهم جهاز مذياع لمتابعة نشرات الاخبار ومعرفة ما إذا كانت عملية هروبهم قد أنكشفت أم لا؟؟

محطة إذاعة إسرائيل تدق معلنة موعد قراءة نشرة الاخبار، فالتفوا مصغين حول الجهاز انتظاراً لسماع أول كلمة ستنبسها شفة المذيع.. وعلى غير العادة بدأ المذيع نشرته بالخبر التالي:

"لقد إستطاع ثلاثة سجناء أمنيين خطرين ومحكوم عليهم بالسجن المؤبد من الهرب والفرار من سجن نفحة الصحراوي. وتقوم الآن وحدات من الشرطة والجيش وأفراد حرس الحدود بالتمشيط والبحث عنهم، حيث نصبت الحواجز على الطرقات، ويساعدهم في ذلك عدد من طائرات الهليوكبتر العمودية، وقد تم إشعار الجهات المصرية بأمر هؤلاء الفارين الثلاثة للمساعدة في إلقاء القبض عليهم وتسليمهم لأنه يحتمل أن يكونوا قد استطاعوا اجتياز الحدود المصرية الاسرائيلية المشتركة".

كان هذا نص الخبر الذي أذاعته محطة أخبار إسرائيل فبهت جميعهم عند سماعهم لذلك ولم ينبسوا ببنت شفه.

(10)

انتشر خبر الهروب الذي أذاعته محطة إذاعة العدو الصهيوني بين الناس، فتناقلته وكالات ومحطات الانباء العربية والعالمية كما نشرته الصحف، ووزعت صورهم على جميع نقاط التفتيش التي نصبت على عجل في كل مكان من جنوب فلسطين. وقصاصو الأثر يحاولون اقتفاء أثار أقدامهم دون نتيجة في العثور على أي أثر لهم، فقد انقطعت أثارهم على بعد عدة كيلو مترات من الحدود المصرية دون أن يعثروا سوى على قميص ممزق وملطخ بالدماء النازفة من جراء إصابة تعرض لها كمال من أسلاك السور الشائكة.

كان أمر اكتشاف هروبهم قد حدث بالصدفة وذلك بعد مرور وانقضاء مرتين من الاحصاء وما يقارب من عشرين ساعة منذ لحظة فرارهم من السجن. فقد حدث أن قام أحد السجانين المعروفين للسجناء بتفقد مسعود وعندما لم يلاحظه في ساحة النزهة ذهب للبحث عنه داخل غرفته دون أن يجده، فأثار ذلك لديه الشكوك واخذ يسأل عنه بعض السجناء في الساحة والذين أخبروه بدورهم بأنه بقي في الغرفة ولم يخرج للساحة لأنه مريض ومصاب بالانفلونزا، وعند ذلك انتابته الشكوك مرة

أخرى حول مكان وجود مسعود، فهو لم يعثر له على أثر لا في الساحة ولا في الغرفة ولا حتى في جميع غرف القسم الذي يعيش فيه. وعلى الفور قام بدوره بإعلام مسؤوليه في السجن، والذين قاموا في الحال بإعلان حالة الطوارىء داخل السجن.. فدوى صفير زامور الانذار وادخل جميع السجناء إلى غرفهم لإجراء عملية إحصاء طارئة للسجناء.. وأثناء تعدادهم وتفقدهم ظهر لهم أن هناك ثلاثة سجناء مفقودين ولم يكن مسعود وحده المفقود، فأبلغوا على الفور مأمور السجن ونائبه وضابط الأمن.. وأعلنت حالة الطواريء القصوى في السجن فاستنفر جميع السجانين وضباط السجن.. وقام مدير السجن بإبلاغ مديرية السجون بالأمر لتتصل بدورها بقيادة الشرطة والجيش، كما أعلمت حكومة الكيان الصهيوني بالأمر.. وحضر إلى مكان السجن كل من قائد المنطقة الجنوبية في الجيش الاسرائيلي " إسحق مردخاي " ومدير مصلحة السجون " دافيد ميمون " حيث حطت بهم داخل أسوار السجن طائرتا هليوكبتر عموديتان كلٌ على انفراد وبصحبتهما عدد من كبار ضباط مديرية السجون والمنطقة الجنوبية، فتفقدا مكان السجن سوياً وشاركا في البحث والتفتيش داخل أركان السجن لمعرفة وتحديد المكان الذي استطاعوا اختراقه والنفاذ منه، حيث

كان الارتباك والاضطراب والتوتر العصبي بادياً عليهما في أثناء تحركهم، فكانا في بحثهما يدوران كالفراشة التي تحوم حول النار.

عمليات البحث والتفتيش شملت جميع أرجاء السجن وخارجه، فلم تُترك ناحية أو مكان دون تفتيشها إلى أن استطاع دافيد ميمون بنفسه أن يكشف المكان الذي خرجوا منه عند هروبهم وذلك أثناء تفقده لأحد القضبان الحديدية الذي ما أن ضغط عليه حتى التوى بين يديه، وعند ذلك هرع الجميع إلى المكان والدهشة تعتري وجوههم.. فتم تصوير نقطة الهروب هذه بعد أن صورت جميع أقسام وزوايا السجن.

استمر التوتر والارتباك مسيطراً على طاقم إدارة السجن من الحراس والضباط على حد سواء، فقاموا بعملية تفتيش همجية انتقامية شملت جميع السجناء، حيث أخرجوهم من غرفهم ليقفوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمس المحرقة بعد أن بعثروا لهم أغراضهم وحوائجهم وداسوا عليها بشكل متعمد، كما صادروا الكثير من حاجياتهم الشخصية. ولم تتوقف هذه الممارسات عند هذا الحد، حيث استمرت الاجراءات الانتقامية محكمة الخناق على السجناء لعدة أيام. إلا أنه وبالرغم من كل هذه الممارسات والمضايقات فالفرحة التي عمت السجناء هي كبيرة جداً، حيث لم تؤثر كل هذه الاجراءات على معنوياتهم، ولتستمر الفرحة عندهم أسبوع كاملاً ابتهاجاً بما حققه إخوانهم الثلاثة من انتصار.. ولم

يمنعهم الوضع الصعب الذي هم فيه من ذلك، كما لم يمنعهم من التخمين لتوقع انعكاسات ما حدث على مصيرهم ومصير إخوانهم الثلاثة.. فأحاديث ونقاشات كثيرة أخذت تجري هنا وهناك وفي كل مكان من الساحة والغرف.. فسأل هزاع صديقه أبو عاهد عن رأيه فيما يحدث الآن قائلاً:

– هل تتوقع يا أبا عاهد أن تزداد ممارسات الادارة ضدنا أكثر مما نتعرض له الآن؟؟

– والله يا هزاع كما تشاهد الآن فإن الإدارة مخبوطة ومقلوبة على بعضها وأتوقع أن تعمد إلى الانتقام منا على ما حصل، وكل شيء وارد الآن وهذا ما كنا قد تحسبناه سابقاً عندما طُرح الموضوع علينا في الجهاز التنظيمي من قبلهم. والآن يا هزاع علينا أن لا نجاري الادارة في الرد على ممارساتها وسياستها لأنها تفتعل ذلك عمداً وافتعالاً لغرض الانقضاض علينا وحينها فإن أحداً لن يقف معنا لمساندتنا في هذا الظرف الصعب والعصيب الذي تمر به كُلاً من إدارة السجن ومديرية السجون ودافيد ميمون كما تعرفه إنسان همجي وسادي ويتلذذ على ألامنا ومعاناتنا.

– ولكن هل تعتقد يا أبا عاهد بأن إدارة السجن ستقوم بتقديم الأخوة في الغرف التي خرجوا منها للمحاكمة وذلك بحجة أنهم قاموا بتقديم المساعدة للتمويه عليهم؟؟

– أنا شخصياً لا أعتقد ذلك، كما لا أتصور يا هزاع أن هناك قانون يمكن الدخول من خلاله لتقديمهم للمحاكمة، وفقط كل ما أعتقده بأن الإدارة يمكن أن تقوم بمعاقبتهم من خلال حرمانهم من زيارة ذويهم لعدد من المرات وكذلك حرمانهم من شراء مواد الكنتينة مع إمكانية وضعهم في الزنازين لفترة من الوقت.

– جيد كلامك وتحليلك للموضوع يا أبا عاهد، فما تقوله يطمئن النفس ويريح القلب.

ثم إستطرد هزاع موجهاً حديثه إلى ياسر بعد أن التفت نحوه، فسأله عن رأيه هو الأخر قائلاً:

– وأنت يا ياسر إيش رأيك في الموضوع.. وهل تعتقد بأنهم الآن اجتازوا الحدود المصرية ووصلوا بأمان؟؟

– حسب توقعاتي أتصور يا أخ هزاع بأنهم الآن يمكن أن يكونوا في مدينة العريش أو مخيم كندا على الأقل وذلك إذا لم يكن قد تم اعتقالهم من قبل شرطة الحدود المصرية...

وقبل أن يكمل تعليقه تدخل موسى في الحديث مقاطعاً وموجهاً كلامه لهزاع قائلاً:

– طيب قولي يا هزاع.. هل عندك قناعة واعتقاد بأن المصريين سيقومون بتسليمهم لحكومة الكيان الصهيوني في حالة اعتقالهم من قبلهم لا سمح الله؟؟

– لا أرجح ذلك يا موسى بالرغم من وجود اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر واسرائيل، فلو حصل أن أقدمت مصر على ذلك فسيكون ذلك فضيحة لها ولن تسكت الجماهير المصرية على هذه الفعلة الشنعاء، وحينها سيحدث غليان جماهيري داخل مصر، وخاصة وأن جميع المصريين غير راضين عن هذه العلاقة مع حكومة الكيان الصهيوني، كما أن ذلك سيعمل على تفاقم المشاكل بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة المصرية.

وهنا تدخل ياسر موضحاً قول هزاع بعد أن كان يصغي إليه حيث قال:

– يعني يمكن اعتقالهم بعض الوقت يا موسى وذلك على سبيل الاحتياط قبل تسفيرهم إلى مكان أخر إن أمكن القول ذلك.

– نعم.. أجاب هزاع مؤكداً ذلك ثم أضاف قائلاً:

هذا ما يمكن أن يحصل.

ثم أكمل موسى أسئلته قائلاً:

– وهل ستقوم مصر بتسليمهم إلى مكتب منظمة التحرير في القاهرة؟؟

– هذا هو الصحيح وما يجب أن يكون، والمهم الآن أن نعرف آخر أخبارهم بأقصى سرعة حتى نطمئن عليهم، فصحراء سيناء التي سيجتازونها واسعة وشاسعة وإللي ما بيعرف طرقاتها ودروبها يضيع فيها، ويمكن أن يدور حول نفسه بين الجبال حتى يُهلك من الجوع والعطش والتعب.

وفي خَضّم هذه الفرحة التي سيطرت عليهم كان هناك قلق يسيطر على السجانين وضباط السجن، فالمدير ومعه طاقم تحقيق من قبل الجهاز الأمني في مديرية السجون بدأوا باستجواب بعض السجانين والضباط ومن بينهم الذين أشرفوا على عملية إحصاء السجناء، وذلك لمعرفة ملابسات وظروف عملية الهروب.. وأحد هؤلاء الضباط المستجوبين إدعى بأنه شاهد مسعود أثناء قيامه بإجراء العدد المسائي. وللتأكيد على كلامه شهّد معه أحد الممرضين العاملين في عيادة السجن، حيث ناوب في ذلك اليوم على العمل، فأكد بدوره هو الاخر أمام المدير وطاقم التحقيق بأنه شاهد مسعوداً في ساعات الصباح حيث استلم منه الدواء المخصص له.

عمليات البحث والتفتيش تتواصل ومحطات الراديو والتلفاز في اسرائيل تواصل نقل وتغطية أخبار عملية الهروب في جميع نشرات أخبارها..

وصورهم تغطي أيضاً الصفحات الاولى في الصحف العبرية والعربية على حد سواء.. والشرطة تنشيء غرف طوارىء خاصة لتلقي المكالمات الهاتفية الخاصة بهؤلاء الفارين، ومزودة إياهم بالإرشادات التحذيرية بعدم الاقتراب منهم خشية أن يكونوا مسلحين.. وأجراس الهواتف ترن متصلة بغرفة الطوارىء لإعطاء وتقديم معلومات تتعلق بالموضوع.. فإحدى النساء إتصلت بأحد مراكز الشرطة لتدلى بمعلومات حول مشاهدتها لثلاثة أشخاص تشبه ملامحهم الصور المعروضة للسجناء الفارين، حيث كانوا قد صعدوا معها إلى الأوتوبيس بالقرب من منطقة السجن.. والمرأة صاحبة الحانوت التي اشتروا من عندها الطعام وكانت قد رمقتهم بنظراتها الفاحصة الغريبة اتصلت هي الأخرى بإحدى غرف الطوارىء لتقديم بعض التفاصيل عن هؤلاء الاشخاص الثلاثة.

في هذه الأثناء فرغ طاقم التحقيق المكلف بتقصي الحقائق حول ملابسات عملية الهروب من أعماله وقدم تقريره إلى الجهات المختصة.. حيث أدى ذلك إلى دفع مدير مصلحة السجون النازي الصهيوني "دافيد ميمون" إلى الإعلان عن تقديم استقالته معترفاً بفشله وفشل سياسته التصفوية الهمجية في تحطيم إرادة ووحدة وصمود السجناء الأمنيين.

الفصل الثــاني

المطاردة

(11)

" نحن الآن في أمان "

هذا ما قاله مسعود وهو يخاطب كلاً من كمال وشوقي اللذين كانا غارقين في تفكير عميق بعد سماعهم لخبر اعلان أمر فرارهم من السجن.. ونظراً لتوقعهم إمكانية انكشاف أمرهم هذا بين الفينة والأخرى منذ أول خطوة في عمليتهم، فقد اتخذوا كافة الاحتياطات التمويهية المتوفرة، ولذا فإن سماعهم للخبر لم يؤثر عليهم بشيء، وفقط اعترتهم الدهشة الناتجة عن انعكاس حالة الترقب والانتظار عليهم، وعندها حاول شوقي التعليق على الخبر أثناء بثه لولا صدهم إياه ليتسنى لهم سماع الخبر جيداً ومن ثم معرفة آخر تطورات عملية مطاردتهم عند العدو الصهيوني.. وما أن فرغ المذيع من إذاعة خبر هروبهم حتى نطق شوقي بما انحبس خلف حنجرته من تعليق سبق أن هم بإطلاقه..

– سمعتم الخبر.. لقد دقت ساعة الحسم.. فالدنيا الآن ستكون مقلوبة في الخارج.. وقوات كبيرة من الجيش والشرطة وسلاح الحدود لابد أن تكون قد انتشرت في كل مكان، ولن يخلو مكان من الحواجز الثابتة والطيارة، وأعتقد أن قصاصي الأثر الآن يقتفون أثار أقدامنا، كما أن

صورنا لابد أن تكون قد سُلمت إلى مراكز الشرطة ووزعت على نقاط التفتيش والعبور. ألاّ تتفقون معي في هذا التخمين؟؟

– بالفعل يا شوقي.. فهذا جزء مما قد يحصل الآن على ضوء هروبنا من السجن، وسيستنفرون كل قواتهم وقدراتهم في البحث والملاحقة، وستضع غرفة عملياتهم كل الاحتمالات مع محاولة سد الثغرات التي يمكن أن يصل إليها تصورهم. سيضعون أيضاً كافة العوائق التي تقضي على احتمالات خروجنا من الحدود أو انخراطنا في تنظيم خلايا عسكرية جديدة تعمل ضد وجوده وأفراده، حيث أصبح لدينا من الخبرة والمعرفة ما يؤهلنا لممارسة العمل المسلح بنجاح تام ودون أن تتمكن أجهزة أمنه من اعتقالنا وذلك نظراً للخبرة التي اكتسبناها طوال فترة وجودنا في الاعتقال خلف الأسوار.. ومن هنا فنحن سنُعتَبر في نظرهم خطرين على أمن كيانهم المزعوم ومن ثم عليهم توقع أي عمل منا ضدهم في أي لحظة.. فالأسير الذي يكون قد أمضى فترة زمنية داخل السجن يختلف بالتأكيد عن الشخص العادي الذي يمارس العمل المسلح دون خبرة سابقة، حيث تجده سهل الاعتقال من قبل أجهزة الأمن نظراً لعدم تمتعه بالخبرة الكافية.

– نعم يا شوقي.

.. أجاب كمال بعد أن غير من شكل جلسته حيث أضاف مكملاً حديثه.

صحيح ما يقوله مسعود.. فالكيان الصهيوني بأعلى مستوياته الآن كما

أعتقد مخبوط على بعضه والبلبلة والاضطراب لابد أن يسودان تفكير أجهزته الأمنية وعلى رأسها جهاز " الشين بيت " وذلك في تصورهم لكيفية التحرك في البحث عنا لمعرفة مكان تواجدنا. فهم لم يتوقعوا إطلاقاً عملية هروب بهذا الشكل الدقيق من التخطيط وعلى وجه الخصوص من داخل سجن أُعتبر في نظرهم عقدة أمنية من الطراز الأول نظراً لكل الاحتياطات الأمنية المشددة التي وُفرت له وجُهز بها.

– إنني أتفق معكم الرأي حول ذلك. ولكن هل تعتقد يا كمال أن صورنا ستنشر عبر شاشات التلفزة.. وهل سيسمع ذوونا واصدقاؤنا بخبر تحريرنا لأنفسنا من خلال مشاهدتهم لصورنا.. وكيف سيكون حالهم عند مفاجأتهم بمثل هذا الحدث الفذ؟؟

– نعم يا شوقي.. ما أروع ذلك.. ألا تتذكر ماذا حصل داخل الكيان الصهيوني قبل عشر سنوات عندما استطاع ثمانية سجناء جنائيين خطرين من السجناء اليهود في سجن الرملة الفرار من السجن، وكان بينهم آنذاك اثنان من السجناء العرب أحدهم سجين أمني. فيوم ذاك ما

أن اكتشفت سلطات السجن هروبهم حتى نصبت على وجه السرعة حواجز التفتيش للجيش والشرطة على جميع الطرقات الرئيسة في جميع أنحاء البلاد، كما الصقت صورهم في جميع الأماكن العامة والشوارع الرئيسية والفرعية، وأيضاً سُلمت صورهم لنقاط التفتيش والمراقبة في الموانىء والمطارات والمعابر البرية، وذلك لتسهيل الأمر على السكان اليهود للتعرف عليهم ومن ثم الابلاغ عنهم في حالة رؤيتهم إياهم. فحصول مثل ذلك كسابقه بالطبع يجعلنا نتوقع سحب عملية القيام بمثل هذه الاجراءات والخطوات علينا أيضاً خاصة وأن أجهزة الأمن يمكن أن تتوقع من خلال تتبع أثار أقدامنا بأننا عدنا أدراجنا إلى حيث انطلقنا لأننا لم نستطع اجتياز الحدود إلى الأراضي المصرية. ونظراً لأن هروبنا حصل من سجن يقبع داخل الأراضي المحتلة سنة 1948م، فسيعتقدون عند ذلك بأنه سيكون لديهم القدرة على إلقاء القبض علينا واعتقالنا، وذلك نظراً للمسافة البعيدة التي تفصل منطقة السجن عن منطقة قطاع غزة. فهذه المسافة ستجعلهم يتوهمون بأننا لازلنا لم نستطع اجتياز هذه المسافة، وان تواجدنا في محيط سكاني من اليهود سيساعدهم في مطاردتهم لنا. وبالطبع هذا أفضل لهم من أن نتواجد في قطاع غزة، حيث سيتعذر عليهم حينئذ ملاحقتنا واكتشاف مكان تواجدنا بسهولة بدون بث العملاء وعيون المراقبة في كل مكان

وخاصة الأماكن التي سيكون لديهم تصور بإمكانية اختبائنا بها أو تحركنا داخلها، وذلك بغرض مراقبتنا لالقاء القبض علينا.

– إذاً ما دمنا الآن قد تصورنا وقع تأثير عملية هروبنا من المعتقل على حكومة الكيان الصهيوني والسكان اليهود، فماذا يمكننا أن نفعل على ضوء هذا التصور، لأننا لا يمكن أن نبقى لفترة طويلة مطاردين، فمن الأفضل لنا أن نبحث عن حل لكي نتدبر أمر خروجنا من قطاع غزة بأقصى سرعة ممكنة. وإلا إيش رأيك يا مسعود في هذا الكلام؟؟.

– حسناً يا شوقي.. فما توقعتم إمكانية حصوله لابد من العمل على مواجهته وذلك باتخاذ الخطوات العملية والمناسبة حتى يكون وجودنا في هذا المكان مأموناً من جميع الجوانب، وطرحك سليم فنحن لا يمكننا أن نبقى في هذا المكان لفترة طويلة وذلك لخصوصية الوضع الحالي، فكما تعرفون أن عهد المطاردة في العمل الفدائي لم يعد له وجود داخل القطاع في الظرف الحاضر، حيث إن الأحوال والأوضاع تغيرت كثيراً عن السابق.. فحالياً أي فدائي ينكشف أمره يصعب عليه الاختفاء أو اللجوء إلى البيارات، حيث المخاطر عديدة.. فمن الدوريات الراجلة.. إلى المراقبة الجوية وبث العيون.. حتى أنه من الصعوبة بمكان أن تجد من يقبل أن يوفر الملجأ لنا ما لم تكن العلاقة معه مشفوعة بأعلى درجات الثقة. كما أننا لا يمكن أن نبقى في هذا البيت الذي نحن فيه

الآن لفترة طويلة بالرغم من توفيره الأمان والطمأنينة لنا، لأن هذا البيت كما تعرفون هو بيت صديق لي، وقد يكون عرضة للانتباه حيث إن عناصر جهاز "الشين بيت " من المخابرات وعملاءهم سيركزون في تتبعهم لنا، لمعرفة مكان وجودنا وإقامتنا، على بيوت أصدقائنا وأقاربنا وخاصة في الأماكن القريبة من مساكننا لأنه سيكون لديهم الاعتقاد بأننا سنجد المساعدة والملجأ المناسب.

– إذاً ما العمل يا مسعود؟؟

سأل كمال بهدوء كمن يريد رأياً واحداً في هذا الموضوع.

– لا داعي للقلق فنحن الآن نتواجد في مكان آمن وهذا ما سيمنحنا متسعاً من الوقت للتفكير بروية وهدوء أعصاب بما يضمن لنا الخروج خارج الوطن والإفلات من شرك جهاز الشين بيت وعملائه، ولكن هذا لا يمنع من أن نبدأ بالتفكير والبحث من الآن لمعرفة ودراسة أسهل وأفضل وأمن الطرق التي تضمن خروجنا بنجاح، واعتقد أننا بحاجة لمساعدة الآخرين للتعرف على كل الملابسات التي ستحيط بخطوتنا هذه.

– وباستطاعتي أنا تدبر هذا الموضوع.

قال شوقي مقاطعاً حديث مسعود ثم أكمل مداخلته.. فأنا أعرف أصدقاء يمكن إئتمانهم وهم لديهم معرفة كافية بالنقاط الحدودية التي

يمكن اجتيازها بأسهل قدر ممكن نحو الأراضي المصرية، فهؤلاء الأصدقاء يعملون في التهريب وهذه مهنتهم. ومن هنا فيمكن إذاً الإرتكان عليهم وتوكيلهم أمر إخراجنا وأنتم لا يهمكم من هذا الجانب. فما رأيكم إذاً؟؟

– لا بأس.. أجاب كمال حيث كان يحك ذقنه بأظافره ثم أكمل.. إلا أنني أفضل حالياً عدم التسرع وأقترح أن نبقى لعدة أيام في قطاع غزة وذلك حتى تهدأ الأوضاع، فالوقت حالياً غير مناسب لاجتياز الحدود، ولن يساعد على خروجنا بأمان، لأن قوات الجيش وحرس الحدود ستكون كما تصورنا منتشرة في كل مكان، مما يجعل عملية اجتيازنا للحدود بمثابة مجازفة ومخاطرة غير مضمونة ولا مأمونة النجاح، كما أن المخابرات يمكن أن تعمل كل جهدها لإغواء من تعرفهم من الاشخاص الذين يعملون في التهريب لتقديم المساعدة لها.. إضافة إلى أن هناك عدداً كبيراً من المهربين غير مأموني الجانب ويغلبون مصالحهم الشخصية في تحقيق المكاسب المالية على كل شيء وعند ذلك سنخسر كل شيء.

– إن ما تقوله يا كمال صحيح.. ولكن ليس كل من يعمل في التهريب يمكن أن يكون له ارتباط مع رجال المخابرات والمباحث. ومع كل هذا فإنه يتوجب علينا أيضاً أخذ تحليلك هذا في الحسبان وذلك

عند اتفاقنا على الشكل الذي سنعتمده في خروجنا لاجتياز الحدود. ولنسمع رأي مسعود في ذلك؟؟

– جيد ما يتصوره كمال يا شوقي.. وأنا شخصياً أيضاً أرى عدم الاستعجال، وعلى قول المثل " في التأني السلامة وفي العجلة الندامة" وهناك إمكانية لأن نخرج عن طريق البحر من منطقة رفح، سواء كان ذلك عن طريق اجتياز المسافة سباحة أو بواسطة زورق صغير "حسكة" وأنا أعرف شخصاً صديقاً لي يعمل في البحر وله قارب صغير مزود بماكنة دفع قوية، والمسافة التي سنجتازها بالقارب داخل منطقة الخطر لن تكون بالطبع طويلة، حيث سنطلب منه أن يحط بنا أمام شاطىء منطقة العريش أو المناطق القريبة منها.

– حسناً.. إنها لفكرة رائعة هذه التي يطرحها علينا مسعود يا شوقي.. قال كمال ذلك ثم استطرد متسائلاً وهو يوجه حديثه لمسعود.

.. ولكن ما أود سؤاله هو: هل يمكن الوثوق بصاحبك هذا؟؟

– نعم يا كمال.. فلو لم أكن أعرفه جيداً لما اقترحت عليكم هذه الفكرة لأنها لن تكون حينئذ مضمونة. كما أن البحر بالتأكيد سيكون أكثر أماناً من الخروج عن طريق البر نظراً لكثرة المحاذير التي قد تواجهنا عند اتصال نقاط الحدود المشتركة مع مصر. وعلى كلٍ فإذا كنتم لا تحبذون هذه الطريقة فبالإمكان أن نجازف بقطع هذه المسافة سباحة

معتمدين على أنفسنا وعلى إرادة الله عز وجل، ويمكن القيام بذلك مع اشتداد حلكة الظلام والدجى.

– ولكنني لا أجيد السباحة.

قال شوقي مقاطعاً حديث مسعود.. بينما كانت اصابعه تعبث بمنفضة سجائر وضعت أمامه.

– إذا فلنتفق على رأي واحد من الآن.

أجاب مسعود ثم أردف قائلاً:

– مهلاً بعد ذلك على الشروع بالخطوات العملية لتحقيق ذلك؟

– جيد.. إذاً فلنتفق على فكرتك يا مسعود...

قال كمال وأضاف مكملاً رأيه بعد أن أطفأ عقب سيجارته في المنفضة.

وأنا بدوري أري بأن نباشر من الآن القيام بأعباء مهمة الاتصال بصديقك البحار والذهاب إلى بيته لمناقشته في موضوع تهريبنا، فلربما يرفض القيام بهذه المهمة، حيث في ذلك مجازفة قد لا يخاطر بالإقدام عليها، أو ربما لا يكون لديه خبرة في هذا المجال.

– إذاً فسأذهب إلى بيته بمفردي وسأوصي بكم صديقي أبو علي ليحسن خدمتكم طوال ساعات غيابي وسأطلب منه تزويدكم بالجرائد والمجلات، ومن جانبي فلن أتأخر عليكم كثيراً وسأختار الوقت

المناسب للذهاب إليه، خاصة في الأوقات التي يتوجب وجوده خلالها في البيت. وأظن أن أنسب الأوقات هو في ساعات ما بعد المساء، حيث أن هبوط الظلام سيساعدني في إخفاء ملامح شخصيتي ومن ثم صعوبة احتمال التعرف علىّ من قبل أي شخص يحاول تتبع خطوات سيري. ولكن في حالة تأخري عن العودة إليكم لأكثر من ليلة فعليكم توقع حدوث مكروه لي، وهذا يتطلب أخذ الحيطة والحذر من قبلكم ومن ثم تغيير مكان إقامتكم لئلا أكون قد وقعت في أحد الكمائن، وهذا يعني إلقاء القبض علىّ واعتقالي حيث أن

تحركاتنا ستكون مراقبة. ومن هنا فعليكم إذاً أخذ كل شيء بالحسبان.

– لا سمح الله يا مسعود أن تُعتقل...

تساءل شوقي بحيرة ثم أكمل قائلاً:

فنحن ما دمنا أصبحنا نتواجد في مدينة غزة فإنه سيكون من الصعب إعادة اعتقالنا ولن يتأتى ذلك إلاّ على أرواحنا، فالشهادة ستكون هدفنا بعد أن نكون قد قتلنا عدداً من جنود وقوات أمن الصهاينة، ويكفينا عذابات الاعتقال والتواجد خلف الأربع جدران مع ما نعيشه من ظروف اعتقال صعبة وما نتلقاه من معاملة سيئة وفقدان لأدنى شروط الحياة الإنسانية بكل معنى الكلمة.

– نعم يا شوقي.. لن يكون أمامنا خيار إلا الشهادة أو النصر وذلك بالخروج إلى خارج الأرض المحتلة. هذا ولكن قبل أن يذهب مسعود إلى بيت صديقه البحار أرى أن نعمل على محاولة الاتصال بذوينا لطمأنتهم علينا ولتزويدنا أيضاً بمبلغ من النقود يساعدنا في تصريف معيشتنا وشراء ما يلزمنا من الملابس التي تمكننا من زيادة إبعاد الشبهة عن أنفسنا وتمويه ملامحنا وأشكالنا، واعتقد أنهم الآن قلقون علينا ويريدون معرفة أخبارنا ومصيرنا. ولهذا فلابد من تهدئة قلوبهم والتخفيف من روعهم. ويمكننا أيضاً اعتماد أحدهم كرسول لنا في جميع اتصالاتنا وتنقلاتنا والأهم من كل ذلك هو شوقنا لهم وضرورة رؤيتهم قبل أن يحدث ما لم

نتوقعه، فلربما نستشهد في أية لحظة، كما أن مكوثنا هنا لن يطول كثيراً.

– هذا هو الصحيح وأوافقك الرأي يا كمال، وأعتقد أنه من الأفضل أن يقوم مسعود بإيفاد صديقه أبو علي "صاحب البيت" لكي يذهب إلى بيت أهله لإبلاغهم عن مكان وجودنا، وهذا أفضل لنا من أن نذهب بأنفسنا إلى بيوتنا لأن في ذلك مخاطرة علينا جميعاً حيث إن بيوتنا في هذا الوقت ستكون تحت المراقبة الشديدة من قبل رجالات جهاز الأمن

وعملائهم، وفي حالة ذهابنا إليها فسوف لن نتمكن على الإطلاق من الإفلات سالمين من قبضة مصيدة المخابرات.

– لا أختلف معكم في ذلك.

أجاب مسعود ثم أردف حديثه قائلاً:

– وسأطلب من صديقي " أبو علي" القيام بإبلاغ أخي منصور لطمأنته على أوضاعنا ولتعريفه بمكان وجودنا، وبعد حضور أخي إلى هنا سأطلب منه الذهاب إلى بيوتكم لإبلاغ من تسمونهم له من ذويكم وعائلاتكم عن مكان إقامتنا هذا، ليقوموا بدورهم بالحضور إلى هنا مع ضرورة مراعاة أخذهم للحيطة والحذر وترتيبات الأمن الضرورية والهامة لنا – قبل وصولهم إلى هنا – في كل خطوة يخطونها وذلك خشية أن يكونوا مراقبين من قبل المخابرات وعملائها وحتى لا تقع لنا ولهم الفاجعة.

– حسناً يا مسعود.

قال شوقي معلقاً ثم أضاف بعد لحظة صمت قائلاً:

... إذاً عليك الانفراد بأبي على للطلب اليه الذهاب إلى بيتكم لإحضار أخيك منصور إلى هنا مع التوصية بأن يجلب لنا في معيته ملابس وغيارات داخلية، حيث إننا في أمس الحاجة لمثل هذه الملابس. وبعد أن أنهى مسعود حديثه توجه إلى حيث كان يجلس صديقه " أبو علي"

في الغرفة المجاورة، فطرح عليه سره وما اتفق عليه هو وأصدقاؤه معبراً له في نفس الوقت عن تقديرهم له لتحمله الأعباء التي أخذ على نفسه القيام بها في سبيل خدمتهم. إلا أن " أبو علي" لم يشعر بأنه يقدم أكثر من الواجب الوطني المفروض أن يؤديه أي فلسطيني نحو رجال الثورة الذين يضحون بالروح والدم لا لهدف ذاتي ولكن بدافع تحرير الوطن والشعب من قوات الاحتلال الصهيوني الغاشم.

تعجب مسعود عند سماعه لشعور صديقه أبو علي، فقد غمره الاطمئنان والاعتزاز بشعبه، بالارتياح من كلام صديقه الذي أردف مبتسماً:

– ولو يا مسعود.. هل تعتقد أن في خدمتك غلبة لي، لا والله يا صديقي فأنا ونفسي هبة لكم وحتى الآن لم أشعر أنني قدمت لكم شيئاً يذكر وخدمتكم واجب وكلامك هذا أزعلني كثيراً.

– بسيطة يا أبا علي.. وزعلك عليّ، فأنا ثقتي فيك كبيرة وكل ما قلته أمامك أعتبره مسحوباً من أساسه. وزيادة في التوضيح فإن رغبتي في رؤية أخي منصور ليس هدفها الاستغناء عنك بل لشعورنا بأننا أثقلنا عليك أو أوقعناك في حيص بيص – لا سمح الله – بل الهدف هو رؤية أخي لمجرد طمأنة والديّ واخوتي على سلامتي، ولمساعدتنا أيضاً في تدبير أمر تهريبنا، فلا بد أنهم قلقون عليّ أنا واصدقائي..

فكما تعرف فنحن لا نستطيع الذهاب إلى بيوتنا ولا حتى الاقتراب منها، لأننا بذلك نكون قد عرضنا أنفسنا للخطر بسبب ما سيكون عليه وضع بيوتنا الآن من ناحية المراقبة الدقيقة، وقد يكون رجال الأمن يترصدون لنا هناك أو بالقرب من المناطق المحيطة ببيوتنا متخفين باللباس المدني للتمويه على أنفسهم وتجنباً للانكشاف.

– إذاً فعليّ أن أذهب الآن إلى بيتكم لرؤية أخيك منصور وإعلامه بالأمر. ولكن ماذا لو لم أجد أخاك في البيت.. فهل أخبر والدك حيث أنه لابد أن يستفسر عن سبب سؤالي عن أخيك.. أم أنتظر عودته إلى البيت؟؟

– لا بأس.. فاذا لم تجد منصور في البيت فانفرد بأبي واعلمه بالأمر لكي يحضر إلى هنا مع ضرورة الطلب منه بإبقاء هذا الموضوع طي الكتمان وعدم إعلام أحد من أفراد العائلة بأمر وجودنا في غزة، لأن الفرحة قد تدفعه إلى عدم السيطرة على عواطفه ومن ثم يقوم بإبلاغ جميع أفراد العائلة. وفي تصوري أنك ستجد أخي منصور في البيت إن شاء الله، وأمل ذلك حيث لن تحتاج عند ذلك إلى توصية.

– جيد يا مسعود.. وعليّ أن أذهب الآن إلى بيتكم بأسرع ما يمكن، وفي العودة سأجلب لكم معي طعاماً لذيذاً.

– في رعاية الله يا أبا علي، ونحن في انتظار عودتك.

خرج أبو علي يخطو على قدميه بين الأزقة الضيقة بعد أن أقفل باب البيت خلفه، بينما عاد مسعود إلى غرفة أصدقاءه والسرور بادٍ على محياه. وبعد أن جلس وأسند ظهره للوسادة الوثيرة، أخذ يحدثهم بما دار بينه وأبو علي. وما أن فرغ من حديثه حتى علت الابتسامة وجوههم جمعياً، وعندها نظر مسعود إلى ساعته حيث كانت عقاربها تشير إلى أن موعد بث النشرة الإخبارية في محطة إذاعة صوت اسرائيل قد حان.. فَهّم بتشغيل جهاز المذياع الذي زودهم به أبو علي.

كانت الساعة تدق معلنة السابعة والنصف مساءً فأصغوا مجتمعين إلى محتويات النشرة الإخبارية والتي تضمنت فيما تضمنته خبراً مفصلاً عن عملية هروبهم والخطوات التي يقوم بها الجيش والشرطة في تعقب واقتفاء أثارهم لأجل إلقاء القبض عليهم بأسرع وقت ممكن.

(12)

لم يطل انتظارهم لعودة أبي علي كثيراً، فقبل أن يمر من الوقت أكثر من ساعة على خروجه حتى كان بينهم بصحبة منصور أخا مسعود. كان اللقاء مشهداً مؤثراً بين مسعود وأخيه، وأيضاً بين منصور وكلٌ من شوقي وكمال، حيث طال العناق والاحتضان وترددت كلمات التهنئة بالسلامة على الألسن.. وعندئذٍ قام مسعود بتعريف أخيه بأصدقائه. لم يكن بينهم حديث واحد منظم، فالفرحة وحرارة اللقاء سيطرت على المشهد، فكان طابع الحديث الذي يدور بينهم يأخذ شكلاً غير منظم ولا مركز، بل هو أشبه بحديث الشخص الملتاع الذي يتم انقاذه من خطر محاصرة النيران، فسار الحديث وتشعب بينهم.. فقال منصور وهو لا يخفي سروره العظيم حيث الفرحة لازالت تسيطر عليه.

– والله الحمد لله على السلامة يا مسعود.. يا مين عاش وشافك يا أخي، والله العظيم إنكم رجال وكنتم قدها وأكثر، وكل الناس في البلد تتحدث الآن عن عمليتكم الجريئة هذه، وهم غير مصدقين كيف استطعتم الخروج سالمين. والجيش الآن مرتبك حيث ينصب الحواجز في كل مكان على الطرقات، كما أن صوراً لكم الصقت عند هذه

الحواجز وفي غيرها من الأماكن. وتواً شاهدت والأهل صوركم من على شاشة التلفاز حيث كنا نترقب سماع أخباركم بعد أن سمعنا عن هروبكم من خلال جهاز المذياع. وكم كانت فرحة والدتك حينها عندما شاهدت صورتك يا مسعود.. وابن أخيك الصغير ناصر أخذ يصرخ وينادي عندما لاحظ صورتك " عمي مسعود" هاي صورة عمي مسعود يا جدتي.

ولكن يبدو أن خطأً قد وقعت فيه المخابرات الإسرائيلية، حيث تم إظهار صورتين لشخص واحد منكم يبدو أن الصورتين المتشابهتين هما لصديقك شوقي، ولم يكن هناك صورة لصديقك الآخر...

وقبل أن يكمل منصور حديثه تدخل كمال مقاطعاً وقال والإبتسامة تعلو شفتيه..

– معلش يا منصور لأن المخابرات هي الآن في وضع ارتباك وبلبلة ورجالها كما يبدو فقدوا السيطرة حتى على ذاكرتهم، وهذا ما يظهر ويتضح من خلال الخطأ الذي وقعوا فيه عند إرسالهم نسخاً من صورنا إلى محطة التلفاز.

– بالتأكيد يا كمال...

أجاب منصور.. ثم أكمل حديثه مع أخيه مسعود بعد أن طلب منه الجلوس والاستراحة.

– مين قال يا مسعود بأننا سنجتمع سوياً في هذا المكان.. ومين توقع يوماً بأنك ستستطيع الهروب من السجن وقهر هذا المستحيل أنت واصدقاؤك الأشاوس.. وكيف استطعتم اجتياز كل هذه القفار الواسعة من الفلاة المتربع داخلها سجنكم حتى وصلتم إلى هنا دون أن يتم اكتشافكم وإعادة اعتقالكم خاصة وأن منطقة السجن هي صحراوية مكشوفة؟؟

– والله يا منصور الحديث عن هذا الموضوع طويل، ولعب الحظ والقدر وإرادة الله أيضاً دوراً في نجاح هروبنا وحتى في التغلب على كل المصاعب التي واجهتنا في طريق سيرنا. ويمكن ألاّ تصدق لو قلت لك بأننا ضللنا الطريق طوال الليل في الصحراء بعد أن ابتعدنا عن السجن، فبعد أن اقتربنا من الحدود المصرية تعثرنا ولم نستطع تحديد وجهة سيرنا فاضطررنا للعودة باتجاه السجن مع كل ما واجهنا في العودة من متاعب ومشاق السير حتى أننا وجدنا أنفسنا نسير بالقرب من أحد معسكرات الجيش دون أن نشعر بذلك، ولولا نباح كلاب المعسكر ومصادفة ظهور ضوء مفاجيء من أحد الأبراج هناك على أثر النباح لِما أدركنا بأننا نتوغل في قلب المعسكر، وحينها ارتمينا أرضاً لئلا تُلمح هياكلنا من خلال النور المسلط باتجاهنا، ولم نصل مكان السجن إلاّ مع انقشاع الهزيع الأخير من الليل موليا أمام ضوء

الفجر وبعد أن أنهك التعب قوانا، كما أن القدر كاد أن ينقلب ضدنا بعد ذلك حيث توقفت بنا السيارة التي أقلتنا عند حاجز تفتيش للجيش على طريق غزة بئر السبع، حيث طلب منا أحد الجنود العاملين على هذا الحاجز إبراز الهويات، إلا أنه في اللحظات الأخيرة وقبل أن نبرزها له كان قد أجال بصره باتجاه طابور السيارات المتجمع خلف الحاجز، وما إن شعر بتزايد عدد هذه السيارات حتى أشار للسائق بالاستمرار في سيره. وحمداً لله يا أخي وكما أنت شايف فعظمة الله كبيرة.

– وماذا ستفعلون الآن يا أخي؟؟

تساءل منصور بعد أن أشعل سيجارة كان قد اخرجها من علبة السجاير.

– نحن الآن يا منصور نتواجد في بيت صديقي أبو علي بشكل مؤقت، وهو استضافنا على السعة والراحة محملاً نفسه أكثر من طاقته في سبيل خدمتنا وتوفير المكان الآمن لنا، ولن أنسى له ذلك ما دمت حيّاً. وبالطبع يا أخي فإن تواجدنا هنا حالياً يعتبر ممراً مريحاً لنا نظراً لابتعاد الشبهة عن هذا البيت بالرغم من أنه بيت صديق لي. ولكن حسب تصوري فإمكانية أن يكون مكاناً لعيون رجال الأمن يبقى احتمالها ضئيلاً. وما أود قوله لك هو أننا إتفقنا فيما بيننا على الخروج إلى مصر عن طريق البحر وبواسطة زورق يملكه أحد الأصدقاء

وسأذهب لرؤيته. وما نريده منك الآن هو الذهاب الى بيوت كل من كمال وشوقي لإبلاغ من سيذكروهم لك من ذويهم حتى يحضروا إلى هنا مع ضرورة جلبهم لكمية من الجنيهات المصرية معهم لحاجتنا لهذه النقود كمصاريف لنا أثناء تواجدنا في مصر وخاصة في الأيام الأولى من إقامتنا، وهم بدورهم سيشيرون لك عن أماكن بيوتهم بالضبط. وعليك الذهاب أولاً إلى بيت ذوي كمال كونه الأقرب، ومن ثم إلى بيت ذوي شوقي بعد أن تكون قد أحضرت معك أخا كمال إلى هنا. وأوصيك بالحذر كل الحذر يا منصور، فعليك فحص طريق سيرك جيداً خلال الذهاب والإياب لمعرفة إن كان هناك أحداً ما يراقب تحركاتك وطريق سيرك أو حتى طريق سير من سيحضر معك من ذويهم إلى هنا.

– على بركة الله.

(13)

وما أن خرج منصور حاملاً وصية أخيه حتى ودع مسعود كلاً من شوقي وكمال بعد أن أوصى بهم أبا علي. وسار في طريقه إلى بيت صديقه البحار وهو يخطو متعثراً بأقدامه بين الأزقة الضيقة والجادات الملتوية في عتمة الليل البهيم.

كان بيت صديقه ليس بعيداً عن الشاطىء فوصله مع الساعة العاشرة مساءً، وذلك في الوقت الذي أخذت فيه حوانيت المنطقة توصد أبوابها متتابعة، وحيث بدأ أيضاً رواد المقاهي بمغادرتها، كما أخذ الناس بالعودة إلى منازلهم للإيواء إلى فراشهم استعداداً لإستقبال يوم جديد يموج بالحيوية.

لم يتذكر مسعود مكان بيت صديقه جيداً في هذه المنطقة حيث أنسته سنوات السجن الطويلة ملامح وعلامات البيت بعد أن فعلت السنون وعوامل الزمن فعلها في بيوت هذه المنطقة، فتغيرت أشكال بيوت كثيرة وتلاشت مناظر ومعالم عدة من هذا المكان كانت لاتزال عالقة في ذهنه وحَسَب نفسه أنه يمكنه الاعتماد عليها في الاستبدال على موقع البيت، فتخبط كثيراً في سيره بين تلك الأزقة المتشعبة والملتوية قبل أن

يعثر على بيت صديقه هذا وبمساعدة المارة بعد أن استفسر لأكثر من مرة عنه، حيث أقدم مرة وتراجع مرات قبل أن يلملم شمل شجاعته في النهاية ويهم متجرئاً، فنقر على الباب بخفة المستحي. وما هي إلا لحظات حتى انفرج الباب عن شق رفيع بانت من خلاله امرأة في الثلاثين من عمرها ممشوقة القد.. مستديرة الوجه.. جميلة السحنة، حيث لمع على شعرها الأصهب حبات زبرجدية عكستها حزمة خيوط ضوء المصباح المسترسل نحوها والمنبعث من شق الباب، فتحدثت معه بصوت أنثوي متهدج سائلة أياه عن حاجته ومبتغاه ؟؟ فأجابها مسعود وهو يرنو ببصره نحوها باستحياء قائلاً:

– هل هذا بيت أبو خليل الصياد؟؟

فأجابته ببرود وهي تختلس النظر إليه اختلاساً:

– نعم هذا بيته ولكنه غير موجود في البيت، فماذا تريد منه.. ومَنْ تكون حضرتك؟؟

سألته المرأة التي اعتقد أنها امرأة صديقه أبو خليل.

فأجابها بدوره متسائلاً مرة ثانية..

– عفواً.. ومن تكونين أنتِ؟؟

– أنا زوجته.. وأبو خليل غائب عن البيت منذ حوالي أسبوع، حيث أنه وبينما كان كعادته سارحاً بحسكته في عرض البحر إعتقله أحد

زوارق خفر السواحل الاسرائيلية واحتجز معه الحسكة بحجة أنه كان يصطاد خارج المناطق المسموح الصيد داخلها.

تألم مسعود كثيراً عند سماعه لهذا الخبر وسيطر التأثر والحزن على سمات وتقاطيع وجهه.. وما أن لاحظت أم خليل عليه ذلك حتى أكملت حديثها قائلةً:

فإذا كان هناك من أمر مهم تريد طرحه والتحدث به، فإليك بيت أهله.

وأشارت بيدها شائحةً نحو زقاق مجاور في الحارة.

– لا يا أُختاه.. ليس هناك موضوع مهم وفقط كنت أود الاطمئنان عليه ولم أتوقع أنه معتقل. وأمل أن يعود إليك بالسلامة.

بعد أن شد من أزرها، قفل عائداً دون شيء حيث اتخذ طريقه مرةً أخرى بين الأزقة الضيقة إلى حيث قدم.

(14)

لم يكن منصور قد عاد بعد، وكان كلٌ من شوقي وكمال ينتظران عودة مسعود بأعصاب متوترة حيث اللهفة لعودته عساه أن يكون قد وفق في مهمته. ولم يتأخر مسعود عليهم كثيراً من الوقت، وما إن دخل عليهما حتى إستطاعا قراءة ما كتبه القدر على وجهه، فتقطُب الجبين وارتفاع الاهداب واصفرار السحنة أوحى لهم بأن مسعوداً قد عاد بخُفّي حُنين.

وبعد أن جلس واستراح قليلاً من تعب المشوار اخذ يحدثهم بما حصل معه في مشواره الفاشل، وما أن فرغ من حديثه حتى اخذوا يتباحثون فيما بينهم مرة أخرى عن وسيلة جديدة أمنة لخروجهم، واستقر رأيهم في نهاية المطاف على أن لمسعود صديقاً اسمه سالم، سبق وأن كان سجيناً وأمضى فترة زمنية في السجن، وهذا الصديق بدوره يعرف شخصاً معروفاً بوطنيته ويعمل في التهريب وهو مأمون الجانب من هذه الناحية. وبينما هم يتناقشون في كيفية الذهاب إليه سمعوا طرقاً على الباب، فخف أبو علي مهرولاً من المطبخ – حيث كان يجهز لهم مشروباً ساخناً – ليرى من هو الطارق، وقبل أن يهم بفتح الباب نظر

من خلال ثقب صغير في الباب ليتأكد مِن صورة الشخص الواقف أمام الباب، والذي هو منصور حيث عاد لتوه بصحبة سعيد أخ كمال، ففتح لهم الباب على مصراعيه وهو يرحب بهما حتى أوصلهما إلى حيث مُستقَر ثلاثتهم. وعند ذلك أسرع سعيد نحو كمال بعد أن قام هو الآخر من مكانه مُستعداً للقاء، فاحتضنه بحرارة. وهو يربث على ظهره بخفة تعبيراً عن مشاعر فرحة اللقاء حيث ترددت كلمات التهنئة واحمرت الوجوه وتوردت الوجنات وتدفقت الدماء فوارة داخل اشاجج أعناقهم. وتكرر نفس الترحيب مع الجميع.. ثم أخذوا يدردشون ويتسامرون النُكات وإعادة الذكريات.. ومع إشتداد الظلمة في هذه الساعات المتأخرة من الليل وحيث كان الظلام قد أطبق بسواد حلكته على المدينة، اضطر منصور إلى قضاء سحابة ما تبقى من الليل إلى جوارهم في البيت انتظاراً لبزوغ فجر يوم جديد لكي يقوم بإكمال مهمته المنوطة به. ونظراً لأن التعب كان قد أنهكهم، حيث قضوا يومين متتاليين دون راحة، فقد غفوا قليلاً بعد أن جَهّز لهم أبو علي مناماً مريحاً ليستيقظوا في ساعات الصباح على إيقاظ أبي علي لهم، حيث كان قد أعد لهم فطوراً شهياً. وليسحب منصور بعد ذلك نفسه مُيمماً شطر منزل أهل شوقي، فاستقل لهذا الغرض سيارة أوصلته إلى هناك. ولم يستغرق وصوله إلى البيت كثيراً من الوقت.. فبعد سؤال قليل من

المارة تعرف على البيت. وقبل أن يطرق الباب حام قليلاً لكي يطمئن من أنَ أحداً ما لا يتابع سيره. وما أن تأكد من خلو مكان البيت من المراقبة حتى دق على الباب، ليخرج له من الداخل أحد الأولاد الصغار سائلاً إياه عن حاجته ومبتغاه ؟؟

وبعد أن أجابه عن حاجته عاد الصبي من حيث أتى ليخبر والده بأن هناك شخصاً يريده، فاستعد لمقابلته بعد أن أصلح من هندامه وملابسه وتلفع بكوفيته، ثم تقدم من خلال الفناء الموصل للباب، حيث كان ولده الصغير قد سبقه في الوصول نحو الباب، وبعد أن رد التحية رحب به وسأله عن حاجته؟ فأجابه منصور مستفسراً إن كان هو " أبو خالد" أخ شوقي. وبعد أن رد بالإيجاب طلب منه أن يسمح له بالتحدث معه على انفراد وعلى الفور أدخله " أبو خالد" إحدى الغرف وأغلق باب الغرفة خلفهما، حيث رحب به مرة أخرى. وعند ذلك عرّفه منصور على نفسه ثم ولّج في الموضوع مباشرة حيث كان أبو خالد يصغى إليه باهتمام.. وبعد أن انتهى من طرح كل ما طُلب منه نقله من كلام. سأله أبو خالد عن أحوالهم وأوضاعهم ولم يطل حديثهما كثيراً. وبعد أن فرغا من احتساء أقداح الشاي التي قدمتها لهم أم خالد استعدا وتأهباً للخروج، فطلب أبو خالد من منصور الانتظار قليلاً في الغرفة حتى يقوم بتجهيز نفسه وكذلك بتجهيز الاحتياجات والطلبات التي أوصى شوقي

بإحضارها. ولم ينتظر منصور كثيراً.. فما هي إلا بضع دقائق حتى كان أبو خالد قد أعد بمساعدة زوجته كل هذه الاحتياجات والطلبات، ثم استأذن زوجته وخرج مع منصور سائرين سوّياً إلى حيث وجدا سيارة صعدا إليها بعد أن طلبا من سائقها أن يوصلهم إلى ميدان غزة الرئيسي. ومن هناك اتخذا طريقهم سيراً على الأقدام إلى حيث منزل أبو علي.

عقارب الساعة أصبحت تشير إلى الحادية عشرة ظهراً، حيث الجميع في البيت يترقبون عودة منصور من بيت ذوي شوقي على أحر من جمر.. وما أن حطت أقدام منصور وأبو خالد أرض البيت حتى ماج الجميع بالحيوية والحبور، فسعادة اللقاء وحيوية الاستقبال رفعا من حرارة الجو المحيط بالبيت فها هم جميعاً يشاهدون ما أرادوه أمام أعينهم ليتحقق لهم نصف حلمهم بهذا اللقاء العزيز السعيد، فأمضوا سحابة ما تبقى من يومهم وهم يتسامرون ويدردشون.. فأعاد مسعود عليهم سرد ملحمة عملية هروبهم وما واجههم من صعاب جمة كادت أن تقضي على طموحهم بالحرية، بينما كان إخوانهم يستمعون إليهم بشوق ممزوج بالألم والحسرة على أوضاع إخوانهم ورفاقهم من السجناء الذين لم يحالفهم الحظ بالهروب مثلهم. وتشعب الحديث فتناثرت الكلمات من

أفواههم حتى استقر الحديث بهم عند خططهم نحو المستقبل. فتساءل أبو خالد قائلاً:

– وماذا ستفعلون الآن لتأمين خروجكم.. وبأي وسيلة ستغادرون قطاع غزة ؟؟

– هذا ليس بذي موضوع يا أخي أبو خالد.

قال شوقي ذلك بعد أن عدّل من شكل جلسته، ثم أخرج من جيبه سيجارة فأشعلها ومضى قائلاً لإكمال جوابه..

لقد كنا في البداية نفكر بالخروج إلى مصر عن طريق البحر، ولكن بعض العقبات والتطورات المفاجئة حالت دون تحقيق ذلك، والآن اتفقنا فيما بيننا على أن نخرج عن طريق البر، حيث لمسعود صديق يعرف شخصاً مأموناً يعمل في تهريب الناس إلى مصر، ولكن حتى الآن لم يذهب لرؤيته لطرح الموضوع عليه، حيث كنا أولاً ننتظر قدومكم ورؤيتكم.

– حسنٌ ما اتفقتم عليه.. وإذا لم يستطع هذا الشخص تأمين تهريبكم بأمان، فبإمكاني أن أسعى لتدبير الأمر لكم وهذا بالطبع منوط بموافقتكم.

وفي خُضم الحديث اعاد كمال تحريك شريط الذكريات.. فتذّكر صديقه ماهر وتصور حاله الآن بعد نجاح هروبهم.. وإذا ما كان ذلك

سينعكس على وضعه النفسي خاصة وأنه لم يوافق على فكرة الهروب معهم لاعتقاده بأنها ستكون مغامرة غير مضمونة النجاح، وها هو الآن سيرى فكرتنا وقد كُتب لها النجاح وتحققت. تذكر أيضاً إخوانه في الزنزانة التي خرج منها ومدى فرحتهم الممزوجة بنقمة إدارة السجن ضدهم لمساعدتهم لنا أثناء خروجنا من السجن.. وبينما هو سارحٌ في تصوراته وتوقعاته قفز على لسانه سؤال لم يستطع إخفاءه، فتنهد وهو يوجه سؤاله نحو مسعود قائلاً:

– هل تعتقد بأن إدارة السجن ستلجأ لتقديم إخواننا في الغرف التي خرجنا منها للمحاكمة على أثر مساعدتهم لنا.. أم أنها ستكتفي بمعاقبتهم؟؟

وهنا وقبل أن يجيب مسعود عن سؤاله ضحك وأخذ يهرش في رأسه كمن يتذكر حادثة حصلت أمامه. ولاحظ كمال عليه ذلك حيث سأله إذا ما كان هناك شيء ما يلعب في خاطره؟؟

فأخبره مسعود بأنه خطرت في دماغه حادثة كانت قد حصلت مع أحد الاصدقاء في السجن حيث يومها ضحك جميع من شاهدها.

وعند ذلك ضحك كمال وضحك الجميع، ثم استطرد مسعود مجيباً عن سؤال كمال قائلاً:

– اعتقد أن إدارة السجن ستكتفي بمعاقبتهم بأسلوب المضايقات والحرمان من بعض الانجازات وذلك لفترة معينة من الوقت، لأنها لا تستطيع تقديمهم للمحاكمة.

– ولكن هل ستشمل العقوبات جميع الاخوة في السجن.. أم أنها ستطال فقط الاخوة في الغرف الثلاث التي خرجنا منها؟؟

– اتصور يا مسعود أن أحداً من الاخوة في السجن لن يستثنى من الخطوات التي ستلجأ الإدارة إلى اتخاذها هناك. فكما تعرف أن العدو عوّدنا دائماً على اسلوب فرض العقوبات الجماعية ضدنا حتى في حالة وقوع أحداث فردية في السجن، كما أنه احياناً يفرضها لأتفه الأسباب خاصة وأن تعاملنا معه هو جماعي الشكل، فما بالك والأمر يتعلق بمثل هذا التحدي الكبير الذي قمنا به والذي بدوره سينعكس حتماً على سياسة الادارة التي ستفقد صوابها من تأثير هذا الحدث الجبار، ويمكن أن يستمر الوضع على هذا الشكل التعسفي لفترة طويلة، حيث ستتسم سياستها بالتشدد ورفض التحسين لأوضاع الاخوة في السجن تحت حجة الذرائع الأمنية الواهية.

طال الحديث بينهم فكان كلما شَرَق أحدهم في سؤاله وإستفساره غَرَب الاخر في جوابه وشطحاته، إلى أن جَن الليل فهبط الظلام، ومع عتمة الهزيع الأول من الليل استأذنهم مسعود متوجهاً إلى بيت صديقه سالم،

حيث حان الوقت للشروع بترتيب ما اتفقوا عليه، وليرى إن كان لدى سالم إمكانية لمساعدتهم في تدبير أمر تهريبهم من القطاع إلى مصر.

وفي الطريق سرح مسعود بخياله بعيداً حيث راودته الأفكار، فتصور شكل اللقاء بينه وصديقه سالم الذي لم يره منذ خرج من السجن قبل نيّف من السنين.. واسترسل في خياله فسأل نفسه قائلاً:

– " هل ما زال يذكرني.. أم هو تغير كثيراً ولن أستطع التعرف إليه.. كلا سيذكرني ولكن هل سأراه والشيب قد غزا مستديرة رأسه.. أم أن الصلع قد جرده من شعر رأسه الكث؟؟ ".

تزاحمت الأسئلة والتصورات في دماغه حتى أشغلته، ووصل البيت في حوالي الساعة العاشرة مساءً، فوجد صديقه سالم وقد تأهب لمغادرة البيت. ورحب به سالم بحرارة ولسانه ينطق بسلامة خروجه من السجن.. وطال بينهم حديث الذكريات المختلط بكلمات الترحيب. وبعد أن سرد له مسعود رواية ملحمة هروبه واصدقائه من السجن، ولّج معه إلى مقصده وطلبه وهدف قدومه ومجيئه إليه.. فتناولا الموضوع من كافة جوانبه. وفي نهاية حديثهم اتفق سالم مع مسعود على أنه سوف يتصل به لاحقاً لإبلاغه بالموقف النهائي بعد أن يكون قد اتفق مع صديقه المهرب على كل الترتيبات الضرورية. وعند ذلك غادر مسعود

البيت موليا شطره باتجاه مكان أصدقائه، حيث وضعهم في صورة ما توصل إليه مع صديقه سالم.

ولم يطل انتظارهم لتلقي الرد الذي جاء إيجابياً.. فحددوا ساعة الصفر للخروج في غضون يومين، حيث عليهم أن يكونوا مستعدين ريثما تجهز كل الترتيبات التي تضمن لهم خروجاً أمناً. وإلى حين ذلك الموعد أمضوا ما تبقى لهم من ساعات أخيرة في الحديث عن أمانيهم المستقبلية.. كما أخذوا يتخمنون شكل الاستقبال الذي ستوفره الحركة لهم، حيث قال شوقي مازحاً:

– هل معقول بأننا سنلتقي أصدقاءنا الذين أُفرج عنهم في صفقة عملية تبادل الأسرى؟؟

– ولِمَ لا يا شوقي..؟؟

اجاب مسعود ثم أكمل حديثه بإجابة عن تساؤله قائلاً:

– فكل شيء متوقع وما نتمناه لابد أن ندركه، فلقد اخترقنا المستحيل ومرغنا أنف العدو في التراب محطمين نظريته الأمنية الزائفة، فلم يعد أمامنا الآن سوى خطوة واحدة.

وعند ذلك ضحك شوقي وقال:

– والله يا مسعود نذر علينا أنا وكمال إذا خرجنا بسلام أن نعمل لك فدعوس في يوم عرسك ولن يكون له شبيه وستذكره ما دمت حيّاً.

في هذا الوقت جاءهم سالم لإبلاغهم بالاستعداد للتحرك بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً. واتفق معهم على أن يقوموا أولاً بالانتظار في مكان ما تم تحديده لهم بين إحدى البيارات خارج منطقة نقطة حاجز التفتيش المقام على طريق غزة – خانيونس الرئيسي، حيث ستنتظرهم في هذا المكان سيارة شاحنة لنقلهم باتجاه الحدود المصرية. وبانتظار هبوط الظلام لم يتركا للوقت مجالاً للإفلات منهم دون استغلال كل دقيقة من دقائقه المتبقية، فأعدوا أنفسهم جيداً وأسرع منصور لجلب آلة تصوير حيث التقطوا لأنفسهم صوراً تذكارية. وما أن زحف الظلام على النهار واحلولكت العتمة حتى احتضنوا إخوانهم.. فانهمرت الدموع الحارة مدرارة بعد أن اغرورقت الأعين مخضلة وجوههم. وعندئذٍ خرجوا من البيت يصحبهم سالم الذي سار بهم بين البيارات إلى أن وصلوا المكان المتفق عليه والمسمى بالنقطة الميتة حيث كانت السيارة الشاحنة بانتظارهم. وحتى ينجلي الليل انتظروا في مكانهم هذا بعض الوقت إلى أن مثلت شمس الصيف أمام السماء، فصعدوا عند ذلك إلى السيارة التي ابتلعتهم في جوفها بعد أن موّهت بلفائف من التبن، لتنطلق بهم إلى حيث واكبتها قلوب الجماهير. ولكنها للأسف لم تصل إلى وجهتها الصحيحة فقد انحرفت عن طريقها الذي كان لابد أن تسلكه.. فجاءت الرياح بما لا تشتهي السفن. وحتى اللحظة ما زالت الحيرة تؤرق

الكثيرين والذين يبحثون في مصيرها.. هل هي الصدفة.. أم أن انحرافها كان مقصوداً؟!

إنتهت

معتقل عسقلان..
1988/12/9م

الكاتب في سطور..

- من مواليد غزة - معسكر الشاطئ.. حيث نما وترعرع.
- التحق في صفوف حركة "فتح" عام 1979م، وذلك أثناء دراسته في جامعة بيروت العربية "لبنان".
- اعتقل بداية عام 1980م حيث كان طالباً في السنة الجامعية الثالثة كلية الآداب "قسم التاريخ".
- أمضى في سجون الاحتلال الصهيوني مدة عشرة سنوات متواصلة ودون اعتراف منه بالتهم المنسوبة إليه.
- في السجن كرس وقته للمطالعة والكتابة، حيث قام بكتابة وتأليف العديد من الكتب والمقالات. وقد نشر له عدة أعمال أدبية وسياسية وإعتقالية.
- عمل داخل المعتقل في جميع المواقع التنظيمية، حيث كان عضواً في اللجنة المركزية وموجهاً عاماً للتنظيم في معتقلات عسقلان وغزة.
- حاصل على شهادتي البكالوريوس في التاريخ والماجستير في العلوم السياسية.
- حاصل على جائزة برنامج الأمم المتحدة الإنمائي U.N.D.P لأفضل متطوع مثالي لعام 2001م.
- حاصل على جائزة أفضل قصة قصيرة عام 1994م عن دار الفاروق للثقافة والآداب والعلوم والنشر "نابلس".
- حاصل على جائزة أفضل قصة قصيرة من الحركة الشعبية لنصرة الأسرى في مسابقة الابداع والتميز.

شغل المواقع التالية:

1. عضو الهيئة الإدارية لإتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين "فرع قطاع غزة" من 1992م إلى 1995م.
2. رئيس لجنة العاملين في جمعية أصدقاء المريض.
3. عضو المجلس المركزي للجان التوجيه السياسي.
4. عضو الهيئة الإدارية لنادي مركز خدمات الشاطئ.
5. عضو مراقب في المجلس الوطني الفلسطيني دورة 1996م.
6. أمين سر وأمين الصندوق في جمعية الأسرى والمحررين "فرع محافظة غزة".
7. رئيساً للجنة زكاة مخيم الشاطئ لمدة عشرة سنوات.
8. رئيساً للجنة حي مخيم الشاطئ لمدة إثنا عشر عاماً.
9. رئيساً لجمعية الشاطئ الخيرية الخدماتية.
10. عضو المجلس التأسيسي لإدارة جمعية أهالي قرية حمامة.
11. عضو الهيئة الإدارية للجنة الشعبية للاجئين في محافظة غزة.
12. عضو اللجنة المحلية للدفاع المدني في محافظة غزة.
13. عضو قيادة إقليم غزة الموحد.. ونائب أمين سر إقليم غرب غزة منذ عام 1994م. ومديراً لمكتب الإقليم.
14. أمين سر إقليم غرب غزة.
15. عضو الهيئة القيادية العليا لحركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح- "المحافظات الجنوبية".

صدر للكاتب

1. الشيء المفقود.. مجموعة قصصية
2. التجربة النضالية لمعتقل عسقلان من عام 1981-1988
3. الانتداب البريطاني على فلسطين من سنة 1917-1948
4. أوراق من خلف جدران الاسر
5. الاستعمار الاوروبي الحديث ونظام الانتداب ومشاكل تقسيمات الحدود السياسية في المنطقة العربية.. "مخطوطة"
6. نفط وبارود.."مخطوطة"
7. نكـــــران الاصـــــول